دور العقيدة

في بناء الإنسان

تأليف
مؤسسة الرسالة

فهرس المطالب

- مقدمة المركز
- مقدمة الكتاب
-

الفصل الثاني

البناء الفكري

- المبحث الأوّل: تحرير فكر الانسِان

الخطيئة أمرٌ طارىء

الإنسان موجود مكرم

معالم التحرير

- المبحث الثاني: بناء فكر الإنسان

تحرير العقل

توجيه طاقة العقل

العلم والإيمان

-

الفصل الثاني

البناء الاجتماعي والتربوي

- أولاً: إثارة الشعور الاجتماعي

أساليب تنمية الشعور الاجتماعي

-

ثانياً: تغيير نظم الروابط الاجتماعية

- ثالثاً: الحث على التعاون والتعلرف
- رابعاً: تغيير العادات والتقاليد الجاهلية
-

الفصل الثالث

البناء النفسي

- أولاً: طمأنينة النفس

أساليب العقيدة في مواجهة المصائب

- ثانياً: تحوير النفس من المخاوف
- ثالثاً: معوفة النفس

دور العقيدة في تعويف الإِنسان بنفسه

- رابعاً: السيطوة على النفس
-

الفصل الرابع

البناء الاخلاقي

- أساليب العقيدة في بناء الإِنسان أخلاقياً

أولاً: تحديد العقيدة للمعطيات الاخروية للاَخلاق

ثانياً: بيان العقيدة للمعطيات الدنيوية للاَخلاق

ثالثاً: تقديم التوصيات والنصائح

رابعاً: أُسلوب الاسُوة الحسنة

- أهل البيت عليهم السلام الأُسوة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

- الخلاصة

مقدمة المركز

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على محمد المصطفى الامَين وآله الطيبين الطاهرين، وبعد:

إنَّ نظرة الانِسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه في شتى المجالات بل وحتى عواطفه وأحاسيسه كلها تدور حول محور العقيدة التي يتبناها، والتي تسهم في بنائه الفكري والاَخلاقي والاجتماعي، وتوجيه طاقاته نحو البناء والتغيير.

وإذا كانت المدارس الوضعية قد حققت بعض النجاح في ميادين الحضارة المادية، فقد أثبتت فشلها الذريع في تلبية حاجة الفرد لحياة كريمة حرّة من قيود الابتذال والفجور، فكان التفسّخ الاخَلاقي والانحدار الخلقي والتفكك الاسرُي والفراغ العقائدي، هو أبرز معطيات الحضارة المادية التي صنعها الإنسان على صعيد الحياة الفكرية والشخصية والاجتماعية.

ولقد اقتضت حكمة الخالق تعالى أن يرشد الإنسان إلى الجذور والاُصول التي يستقي منها معارفه وينهل منها حقائق هذا الوجود ليصل من خلالها إلى المعتقدات الصحيحة السليمة من الشوائب والبعيدة عن الانحراف بعد أن منحه تعالى الفطرة الصافية مشعلاً يهديه إلى النور، نور العقيدة الاِسلامية الحقة الذي أضاء بسناه ماحوله.

ومتى ما حكّم الانِسان عقله يرى أن ّالعقيدة الاسِلامية تشكل ّنظاما متكًاملا للحيًاة البشرية بمختلف أطوارها ويرسم الطريق لكلِّ جوانبها وينسجم مع الفطرة الانِسانية ويضمن تحقق حاجات الفرد الروحية ورغباته المادية بشكل متوازن ودقيق، وبما يضمن كرامته وشخصيته.

وعلى قواعد هذه العقيدة يقوم بناء الشخصية، شخصية الفرد والمجتمع والدولة الإسلامية، وتنتظم العلائق والروابط، وتتحدد الحقوق والواجبات، وتتحقق العدالة والمساواة، ويستتب الأمن والسلام، وينشأ التكافل والتضامن،

وتزدهر الفضائل والمكارم، ويُبنى الانِسان على كافة الاصَعدة.

فعلى الصعيد الفكري أخرجت العقيدة الإسلامية الانِسان من عالم الخرافات والجهل لتأخذ بيده إلى دنيا العلم والنور، محرّرة الطاقات الكامنة فيه للتأمل والاعتبار بآيات الله ودلائله، وبذلك فقد نبذت التقليد في الاعتقاد وربطت بين العلم والإيمان.

وعلى الصعيد الاجتماعي استطاعت العقيدة الإسلامية أن تسمو بالروابط الاجتماعية من أُسس العصبية القبلية واللون والمال إلى دعائم معنوية تتمثل بالتقوى والفضيلة والاَخاء الانِساني، فشكلّ المسلمون خير أمةُ أخرُجت للناس بعد أن كانوا جماعات متفرقة متناحرة.

وعلى الصعيد الاَخلاقي نجحت العقيدة الاِسلامية في تنمية الواعز الذاتي القائم على أساس الايمان برقابة الخالق جل وَّعلا لكلِّ حركات الانِسان وسكناته وما يستتبع ذلك من ثواب وعقاب، الامَر الذي أدى إلى تعديل الغرائز وتنمية شعرة الاخَلاق الفاضلة وجعلها عنصراً مشتركاً في جميع الاحَكام الاسِلامية.

كما أسهمت العقيدة الإسلامية في بناء المجتمع اقتصادياً وسياسياً وتربوياً، وبذلك فهي تمثل عنصر القوة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

فلأجل النهوض بالإنسان المسلم من حالة الضعف الروحي والانزلاق في مهاوي المادية ومغرياتها، لا بدَّ من تذكيره بمعطيات تلك العقيدة، وترسيخ قناعته بقوتها وصلاحيتها لكلِّ العصور بلغة معاصرة، وبشكل يتناسب مع مقتضيات العصر الحديث، والتحليل الفكري.

وإصدارنا هذا يوضح لك هذه الحقائق بشكل جلي معتمداً البحث والتحليل الفكري بإسلوب سهل ممتع وعرض علمي قويم يبتعد بالأفكار عن مهاوي الانحراف وأوهام الخيال، ويقودها إلى الحقائق الناصعة والأدلة الساطعة.

فلله الشكر على ما أنعم وله الحمد على ما وفق وهو المستعان

مركز الرسالة

المقدِّمة

أكثر ما يهمّ الإنسان في الحياة هو أن يعرف حقيقة مبدئه ومعاده، والغاية من وجوده، ومن أين جاء، وإلى أين ينتهي، ولماذا وجد ؟

هذه الأسئلة التي يطرحها الإنسان على نفسه على الدوام، تحتاج إلى إجابات شافية، لكي يتخذ الإنسان على ضوئها موقفاً من الحياة، يحدد سلوكه، ويقيم لمجتمعه نظاماً صالحاً يرتضيه.

ولقد فشلت العقائد الوضعية في الاجابة على استفهامات الإنسان المتعلقة بمبدئه ومعاده، ومبرِّر وجوده؛ مرةً من خلال الادعاء بأنَّ الانسان وجد صدفة ! ومرةً أخرى من خلال الزعم بأنه وجد نتيجة لتطور المادة !!.. وما إلى ذلك من تفسيرات واهية لا تُسمن ولا تغني من جوع الإنسان وتعطشه الابدَي لمعرفة الحقيقة.

وليس هذا فحسب، بل فشلت أيضاً في رسم معالم النظام الاجتماعي الذي يصلح الانسان ويحقق سعادته.

وبينما أجابت العقائد الدينية المحرَّفة إجابات باهتة ومشوهة، عندما أقرّت من حيث المبدأ بوجود الخالق ولكن شبهّته بخلقه، كما فشلت في تحديد النظام الأصلح للبشرية، أجابت العقيدة الإسلامية عن كلِّ ذلك بمنتهى الصدق والعمق، عندما أعلنت أن للإنسان خالقاً حكيماً قادراً

لايُنال بالحواس ولا يقاس بالناس، وأنّ الانسان وجد لغاية سامية وهي عبادة الله تعالى والوصول من خلالها إلى أرفع درجات التكامل والخلود.

كما تولِّد هذه العقيدة أيضاً عواطف وأحاسيس خيرةً، يتبنى الاسلام بثها وتنميتها من أجل بناء الانسان الكامل في الابعاد

الفكرية والاجتماعية والسلوكية، وتكوين الشخصية العقائدية التي تتمتع بعقلية هادفة وسلوك قويم، واتجاه رسالي، على العكس من الشخصية اللامنتمية، التي تنصبّ اهتماماتها جميعاً على الذات ومصالحها ورغائبها، فتعاني من الفراغ العقلي والتأزم النفسي وفقدان الهدفية في الحياة.

وينبغي الإشارة هنا إلى أنَّ العقيدة الاسلامية ليست كعقيدة الفلاسفة . باعتبارها نظرية فكرية تقبع في زوايا الدماغ . بل هي قوة تتحرك في القلب وتنعكس ايجابياً على النفس والجوارح، فيندفع معتنقها إلى ميادين الجهاد والعمل، وعليه فقد كانت قوة فاعلة ومحرّكة، غيرّت مجرى التاريخ، وبدلّت معالم الحضارة، وأحدثت في حياة الانسان الاجتماعية والفكرية انقلابات رائعة، وحققت انتصارات عسكرية مشهودة، ولذلك وجدنا القلة المستضعفة الأولاء في مكة، استطاعت بعقيدتها أن تصمد ثلاثة عشر عاماً في مواجهة طغيان كالطوفان.

وهذه العقيدة هي التي جنّدت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم جيشاً عدتهّ عشرة آلاف، وهو الذي خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها، ولم يستطع الذين حاربوه طوال هذه المدة أن يصمدوا أمام قوة الإيمان الزاحفة، فاستسلموا له، وأتوا إليه مذعنين، أو دفعوا إليه الجزية صاغرين.

كان المسلمون يملكون أقوى عُدد النصر، وهي العقيدة التي تصنع

المعجزات، التي جعلت من حمزة . سيد الشهداء . يقود أوّل سرية في الاسلام في ثلاثين راكباً مسلماً، لمواجهة ثلاثمائة راكب من قريش على ساحل البحر الأحمر، ولم تخرج السرية المسلمة لمجرَّد استعراض العضلات، بل كانت جادةً في المواجهة والاشتباك مع عدو تبلغ قوته عشرة أضعاف قوّتها.

ولم يحدث في تاريخ معارك الإسلام، التي كان يحرز فيها انتصارات باهرة ومتوالية، أن كانت قوة المسلمين المادية متكافئة مع قوة العدو، بل كانت قوة المسلمين من حيث العدد والعُدّة تصل أحيانا إلى خمُس قوة العدو، ولم يتحقق النصر إلا بالاعتمادهم على المدد المعنوي الهائل الذي تمنحه العقيدة للمقاتل المسلم مع عدم إغفال دور الامداد الغيبي المتواصل، وبعض العوامل والشروط المادية الأُخرى.

وهكذا نجد أنّ العقيدة هي القوة الأساسية في كلّ معارك الاسلام، والعامل الاساس في تحقيق النصر في مختلف المجالات.

وبغية النهوض الحضاري بالفرد المسلم، لا بدَّ من تذكيره بالمعطيات الحضارية التي منحتها العقيدة الاسلامية لمن سبقه من المسلمين، صحيح أنَّ المسلم لم يتخلَّ كلياً عن عقيدته، ولكن عقيدته قد تجردَّت في قلبه من فاعليتها، وفقدت في سلوكه إشعاعها الاجتماعي، بفعل عوامل الغزو الفكري التي تعرّض ويتعرض لها باستمرار، وبفعل عوامل الانحطاط والتخلف التي عصفت بمجتمعه كنتيجة مباشرة لابتعاده عن قيم وتعاليم السماء.

وممّا ينبغي التركيز عليه في هذا الاطار:

أولاً: تعريف الإنسان المسلم بعقيدته الحقة عن طريق منابع المعرفة الصافية.

وثانياً: ترسيخ قناعته بصوابها وصلاحيتها للعصر الراهن، وإبراز عناصر تفوقها على العقائد الاخرى.

وثالثاً: العمل على إعادة دور العقيدة في بناء الانسان المسلم، لتتجسدّ في فكره إيمانا عميقا، وفي سلوكه عملا صالحا وأخلاقاً حميدة، كما كانت تتفاعل عطاءً وجهادا في نفوس المؤمنين السابقين ومن تبعهم بإحسان.

ولاجل هذه الغاية، عقدنا هذا البحث الذي يتناول دور العقيدة في بناء الإنسان الفكري والاجتماعي والنفسي، وانعكاساتها على أخلاق المسلمين وسلوكهم، كما سلّطنا الضوء فيه على الدور الكبير الذي قامت به مدرسة آل البيت عليهم السلام من أجل صيانة العقيدة، والتصدي الحازم لمحاولات تسطيح الوعي التي تعرّض لها الانسان المسلم في أدوار سياسية متتابعة.

ولا بدَّ من الاشارة إلى أننا اتبعنا في هذا البحث «المنهج النقلي» واعتمدنا - أساساً - على المصادر والمراجع التراثية.

ومن الله نستمد العون والتوفيق.

الفصل الأول

البناء الفكري

المبحث الأول: تحرير فكر الإنسان

ترتكز نظرة العقيدة الإسلامية على كون الانسان موجوداً مكرماً: **(ولقد كرمّنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضلّناهمُ على كثيرٍ ممنّ خلقنا تفضيلا)**[1].

فهو خليفة الله في الأرض، يمتلك العوامل التي تؤهله للسموّ والارتفاع إلى مراتب عالية: **(وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الارض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يفسُد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدسُ لك قال إني أعلم ماُ لا تعلمون)**[2]. كما أن بإمكان الإنسان أن ينحطّ ويتسافل حتى يصل إلى مرتبة الحيوانية: **(... أخلدَ إلى الأرضِ واتبعَّ هَواه فمثله كمُثل الكلبِ إن تحمل عليهِ يلهث أو تتركه يلهث..)**[3].

ثم يتسافل أكثر فأكثر حتى يصل إلى مرتبة الجماد: **(ثمَّ قست قلُوبكُمُ**

(1) الاسراء 17: 70.

(2) البقرة 2: 30.

(3) الاعراف 7: 176.

من بعدِ ذلك فهي كالحجارةِ أو أشد قُسوة..)[1].

وعليه فالعقيدة الإسلامية تراعي في الانسان عوامل القوة والضعف معاً، فقد وصُف الانسان في الكتاب الكريم بأنه خُلقَ ضعيفاً هلوعاً عجولاً، وأنه يطغى، وأنه كان ظلوما جهولا [2].

وعلى هذا الأساس لا تحاول الشريعة إرهاقه بتكاليف شاقة، تفوق طاقاته وقواته النفسية والبدنية، قال تعالى: **(لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ وسُعها..)** [3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رُفعَ عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يعلمون، ومالا يطيقون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطّيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة» [4]. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رُفعَ القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتىّ يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم» [5].

فالعقيدة الإسلامية . إذن . تعتبر عوامل الضعف في الإنسان حالة طبيعية ناتجة عن تكوينه البشري، ولم تزها معقدة بالمستوى الذي يفقد الإنسان معها قدرته على البناء والحركة، وحرية الاختيار.

---

(1) البقرة 2: 74.

(2) راجع سورة النساء 4: 28 ، والمعارج 70: 19 ، والاحزاب 33: 72 ، والأنبياء 21: 37 ، والعلق 96: 6.

(3) البقرة 2: 286.

(4) الخصال، للصدوق: 417 باب التسعة . منشورات جماعة المدرسين . قم.

(5) كنز العمّال، للمتقي الهندي 4: 233 مؤسسة الرسالة ط 5.

وفوق ذلك حاولت العقيدة . وهي تريد بناء الإنسان وتكامله . أن تثير لديه شعوراً عميقاً بالجانب الايجابي من وجوده.

الخطيئة أمرٌ طارىء

من ناحية أُخرى فإنَّ العقيدة الاسلامية تعتبر الخطيئة أمرا طارئا على الانسان، وليس ذاتيا أصيلا، وعليه فحين يسقط الإنسان في مهاوي الخطيئة، فإنّه لا يتحول إلى شيطان تمنعه شيطنته من العودة إلى رحاب الانسانية، بل يبقى إنسانا مخطئاً يمكن أن يسعى إلى تصحيح خطئه، والنهوض من كبوته.

وهذا هو سر عظمة النظرة الإسلامية إلى الانسان، فهي لا تجعله تحت رحمة الشعور بخطيئة أصيلة مفروضة عليه، كما تفعل النصرانية، بل هي تسعى إلى انتشال الإنسان من وحل الخطيئة، وإشعاره بقدرته على الارتقاء، وتذكره الدائم بعفو الله ورحمته الواسعة، وعدم اليأس منها. ولا يوجد في الإسلام «كرسي للاعتراف» كما هو الحال في النصرانية، بل يسعى أئمة الدين وعلماؤه إلى ستر عيوب الناس وذنوبهم مهما أمكن ذلك، لأن الله تعالى يحبّ الستر.

عن الاصبغ بن نباتة قال: أتى رجل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي زنيت فطهّرني، فأعرض أمير

المؤمنين عليه السلام بوجهه عنه، ثم قال له: «اجلس، فأقبل عليّ عليه السلام على القوم، فقال: أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه ؟!..» [1].

(1) من لا يحضره الفقيه 4: 21 | 31 باب فيما يجب به التعزير والحد، دار صعب طبع 1401 هـ.

الإنسان موجود مكرَّم

ومن جانب آخر تحاول العقيدة إشعار الإنسان . على التوّام . بأنهّ موجود مكرمٌ، له موقعه المهم فيّ هذا الكون، من خلال وظيفة الاستخلاف فيه وما عليه إلاّ أن يقوم بأداء وظيفة الاستخلاف هذه على أحسن وجه،وأن يشكر خالقه على هذا التكريم والتمكين والهداية إلى الدين الحق.

سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه السلام عن حبه للقاء الله تعالى، فقال: بماذا أحببت لقاءه ؟ قال عليه السلام: «لمارأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه ، علمت أنَّ الذي أكرمني بهذا ليس ينساني، فأحببت لقاءه» [1].

معالم التحرير

ولقد أسهمت العقيدة إسهاماً فعالاً في تحرير الانسان على محاور عدةّ، منها: .

أولاً: . حررَّت الانسان من الاستبداد السياسي، فليس في الاسلام استبداد إنسان بآخر، أو تسخير طبقة أو قومية لاخرى (فقد كان الدين، على امتداد التأريخ الإسلامي، من أبرز العوامل لظهور حركات التحرر. ومهما تكن نظرة الباحث تجاه الدين فلا يستطيع إبعاد العامل الديني وأثره في بناء الوعي الثوري خلال هذه الفترة من تأريخ الاسلام.

فلم تكن ثورة أبي ذر رحمه الله وثورة الحسين عليه السلام إلاّ منطلقاً لاتجّاه واعٍ لتصحيح الانحراف في تأريخ الاسلام. ورغم كل الانحراف الذي تعرض

(1) كتاب الخصال: 33 باب الاثنين ـ منشورات جماعة المدرسين ـ قم.

له المسلمون على امتداد تأريخهم الطويل لم ينعدم في فترة من هذا التأريخ اتجاه ثوري قوي في إعادة الإسلام الى مجاري الحياة والقضاء على الظلم والاستغلال واستعادة حقوق الانسان المسلم وكرامته) [1].

كما حرَّرت العقيدة الاسلامية الانسان من عادة «تأليه البشر»، كعبادة الملوك والأُسر الحاكمة،وهي عادة كانت سائدة عند بعض الأُمم القديمة كالمصريين القدماء، وقد أبطل الإسلام نظريات التمييز بين إنسان وآخر، سواء على أساس الجنس أو اللغة أو اللّون أو المال أو القوة، ومقياس التفاضل ينحصر في أُمور معنوية هي التقوى والفضيلة، قال تعالى: **(يأيُّها النَّاسُ إنا خَلقناكُم من ذكر وأنثى وجعلناكم شُعوبا وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)** [2].

إنّ الاِسلام يحتل الاسَبقية بإعلان مبدأ الحرية قبل الثورة الفرنسية بأكثر من عشرة قرون.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبةٍ له: «أيُّها الناس إنّ آدم لم يلد عبداولًا أمة،وان النّاسّ كلهم أحرار..» [3].

إلاّ أنّ الاِسلام لم يجعل هذه الحرية الممنوحة للانسِان مطلقة، بحيث يطلق العنان للانسانِ ليفعل ما يشاء، بل جعل للحرية ضوابط وكوابح حتى لا تؤدي إلى فوضى.

ومن هنا يبرز الفرق الشاسع بين العقيدة الاِسلامية التي تربط الحرية

---

(1) دور الدين في حياة الانسان، للشيخ الآصفي: 50 ـ دار التعارف ط2.

(2) الحجرات 49: 13.

(3) فروع الكافي 8: 69 . دار صعب ط3.

الاِنسانية بالعبودية لله تعالى والخضوع الواعي والطوعي لسلطته، وبين القوانين الوضعية التي تلُقي بالانسِان في تيه لا يتفق مع فطرته ولا مع طبيعته.

ومن هنا لا بدَّ من توازن بين الحرية والعبودية، وليس هناك توازن في هذا السبيل يطلق قوات الاِنسان، ويحافظ على طبيعته في آن واحد، إلاّ بما نجده في الاِسلام؛ عبودية لله، وحرية من سائر العبوديات، فلا تكتمل حرية العبد إلا بعبوديته لله.. ولا تكتمل عبوديته لله إلاّ بتحرره من عبادة سواه، فهنا توازن واتسّاق واضح بين الجانب الاجتماعي والجانب الايماني في شخصية المسلم عن طريق الحرية كما يراها الاِسلام [1].

وعلى ضوء ما تقدم، فالعقيدة تُقرِّر حقيقة أساسية هي أنّ جوهر الحرية الحقيقية، هو العبودية لله، لانهَاّ تعني التحرر من جميع السلطات الجائرة، وليس في العبودية لله أي امتهان لكرامة الاِنسان، بل هي على العكس من ذلك تعزّز شخصيته وتحافظ على مكانته،

فقد كان الرسول الاَكرم صلى الله عليه وآله وسلم يتشرف بكونه عبداً لله، ويحب أن يطلقوا عليه صفة «العبودية» ويرفض الغلوّ الذي قد يؤدي إلى التأليه الباطل، كما حصل لاَهل الكتاب على الرغم من التحذير الالهي لهم من الغلو في أشخاص رسلهم، قال تعالى: **(يأهلَ الكتِابَ لا تغلوَا في دينكم ولاُ تقولوا عُلىَ الله إلا الحِق إنما َالمَسيحَّ عيسى ابُن مريم رسوُل الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه..)** [2].

---

(1) معالم شخصية المسلم، للدكتور يحيى فرغل: 79 ـ 80، منشورات المكتبة العصرية ـ طبعة عام 1399 هـ.

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحارب فكرة تأليه البشر من خلال التركيز على صفة العبودية أحياناً. قال أمير

المؤمنين علي عليه السلام: «أنا عبدالله وأخو رسوله» . وقال الإمام الرضا عليه السلام: «بالعبودية لله أفتخر» . على أن فكرة تأليه البشر كانت سائدة في الأمم الاخرى، وتسربت إلى أتباع الاديان السماوية فخالطت عقائد بعضهم، فالمسيحية . على سبيل المثال . تدّعي إلوهية المسيح، واليهودية تزعم أنّ عزيراً ابن الله !

ومن هنا تبرز حكمة وبُعد نظر الإمام علي عليه السلام في تركيزه على صفة العبودية ووقوفه بالمرصاد لكل دِّعوات الغلو التي نسبته إلى الربوبية، جاء في الحديث: (أنّه أتى قوم أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام فقالوا: السلام عليك يا ربنا ! فاستتابهم، فلم يتوبوا، فحفر لهم حفرة، وأوقد فيها ناراً وحفر حفرة إلى جانبها اخرى، وأفضى بينهما، فلما لم يتوبوا، ألقاهم في الحفرة، وأوقد في الحفرة الأخرى حتّى ماتوا) [4].

وفي هذا الصدد قال عليه السلام: «هلك فيَّ رجلان: محبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ» [5].

ثانياً: حرَّرت العقيدة الاسلامية الانسان المسلم من شهوات نفسه

---

(1) النساء 4: 171.

(2) كنز العمال 13: ح 36410.

(3) بحار الانوار 49: 129.

(4) وسائل الشيعة 18: 552 . دار احياء التراث العربي ط 5.

(5) نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح، 558 | حكم 469.

بعدما ربطت قلبه بالله والدار الآخرة، ولم تربطه بأهوائه ونزواته، لقد زودت العقيدة عقل المسلم وإرادته بالحصانة الواقية من الانحراف أو إيثار العاجل الفاني على الآجل الباقي، والنَّفس . في توجهات آل البيت عليهم السلام . هي منطقة الخطر، لذلك تصدّرت أولى اهتماماتهم.

ومن هنا نجد أنّ حديث النفس وضرورة السيطرة عليها يحتل مساحة كبيرة من أقوال وحكم ومواعظ أمير المؤمنين عليه السلام، فلم يترك مناسبة إلّا واغتنمها في الحديث عن النفس لكونها قطب الرَّحى في عملية بناء الانسان.

لقد أخبرنا الذكر الحكيم: **(.. بأنَّ الله لم يك مُغيِّراً نِّعمَةً أنعمَها عَلَى قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)** [1] ولذلك فإنَّ ما يلفت نظر الباحث أنّ الإمام علياً عليه السلام . أيام حكومته العادلة . كان يوصي عماله على الاقاليم وكبار قادته بالسيطرة على النفس، على الرغم من انتقائه الدَّقيق لهم، وكون أكثرهم من ذوي الفضائل العالية والسَّجايا الحميدة، فمن كتاب له عليه السلام للاشتر لما ولاه مصر: «هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحرث الاشترَ... أمره بتقوى الله، وايثار طاعته... وأمرَه أن يكسر نفسه من الشهوات... فإن النفس أمارة بالسوء، إلا ما رحم الله... فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحلّ لك، فإنّ الشحَّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت وأشعر قلبك الرحمة للرعية» [2].

ومن وصية له لشريح بن هانيء أحد قادته العسكريين، لمّا جعله على

(1) الانفال 8: 53.

(2) نهج البلاغة، لصبحي الصالح: 427.

مقدّمة جيشه إلى الشام: «...واعلم أنّك إن لم تردعَ نفْسك عن كثير مما تحبُ، مخافة مكروه، سمت بك الاهواء إلى كثير من الضرر، فكن لنفسك مانعاً رادعاً...» [1].

ومن كتاب له عليه السلام كان قد وجّهه إلى معاوية، كشف له فيه عن سر تمرّده على القيادة الشرعية، المتمثل في انحرافاته النفسية، فقال له: «فإنّ نفسك قد أولجتك شراً، وأقحمتك غياً، وأوردتك المهالك، وأوعرت عليك المسالك» [2].

فالانحراف النفسي له عواقب جسيمة، وخاصة من الذين يتصدّون لدفة القيادة بدون شرعية وجدارة.

وكان أهل البيت عليهم السلام مع عصمتهم المعروفة يطلبون من الله تعالى العون على أنفسهم، تعليماً وتهذيباً لغيرهم، ومما جاء من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «...وأوهن قوّتنا عما يسُخطك علينا، ولا تخل فيّ ذلك بين نفوسنا واختيارها، فإنها مختارة للباطل إلاّ ما وفقّت، أمارّة بالسوء إلا ما رحمت» [3].

ونستنتج من كلّ ذلك، أنّه لا يتم بناء الانسان إلا بالسيطرة على النفس وهو ما سيأتي الحديث عنه.

ثالثاً: إنّ العقيدة الاسلامية حررّت الانسان من عبادة الطبيعة ومن تقديس ظواهرها، ومن الخوف منها، يقول تعالى: **(ومن آياتِهِ الليلُ والنَّهارُ والشمسُ والقمرَ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر...)** [1].

لقد مرَّ الانسان بمرحلة الحيرة والتساؤل والقلق من مظاهر الطبيعة من حوله، فهو لا يعرف شيئاً من أسرارها وأسباب تقلّب أحوالها، فأخذ يقدّسها ويقدّم لها القرابين بسخاء، متصوراً أنّه سوف يأمن بذلك من ثورات براكينها الملتهبة وزلازلها المدمّرة وسيولها الجارفة وصواعقها المحرقة، فعملت العقيدة على تنقية العقول من غواشيها، وفتحت الطريق أمامها واسعاً لاستثمار الطبيعة والتسالم معها، عندما رفعت ما كان من حجب كثيفة بين الإنسان والطبيعة، وانكشف له بأنّ الطبيعة ومظاهرها وما فيها من مخلوقات وحوادث كلها صادرة عن الله تعالى، وهي مخلوقات مسخّرة لخدمته، وما عليه إلاّ أن ينتفع بها ويتفكر فيها وبأصلها حتى يصل عن طريقها إلى الخالق: **(أفلا ينظرُون إلى الابلِ كيف خلقتْ * والى السماءِ كيف رفعَت * وإلى الجبالِ كيف نصُبت * والى الارضِ كيفَ سطحتْ)** [2].

(1) نهج البلاغة: 447.

(2) نهج البلاغة: 390.

(3) في ظلال الصحيفة السجادية، للشيخ مغنية: 100 . دار التعارف للمطبوعات ط2.

ولا بدَّ من الاشارة إلى أنّ منهج العقيدة في بناء الانسان «منهج شمولي» ينظّم علاقة الانسان بنفسه وبربه وبالطبيعة من حوله، وكل توثيق أو تطور في العلاقة بين الإنسان وربّه فسوف ينعكس إيجابياً على علاقته مع الطبيعة المسخرة بيد الله تعالى، فتجود على الإنسان المؤمن بالخير والعطاء، لذلك طلب النبي «هود» عليه السلام من قومه . الذين ابتعدوا عن منهج السماء فحُبس عنهم المطر ثلاث سنين وكادوا يهلكون . أن يستغفروا

(1) فصلت 41: 37.

(2) الغاشية 88: 17 . 20.

ربّهم عما سلف من ذنوبهم، وأن يتوبوا إليه بتصحيح مسيرتهم وتنظيم علاقاتهم مع الله تعالى، وحينئذ سوف تنتظم علاقتهم مع الطبيعة فتجود بالمطر والخير، قال لهم: **(يا قومِ استغفروُا ربكَّم ُثم تُوبَّواُ إليُه يرسلِ ألسماءِ عليَّكم مَدرارا وُيزدكِم قوَّة إلَى قوَّتكِمُ ولا تتولَّوا مَجرمُينِ)** [1].

وعليه فالعبادة الحقة، يجب أن تكون لله وحده، والخوف يجب أن يكون من الذنوب، التي تُثير سخط الله وتجلب انتقامه، فيستخدم الطبيعة أداة للعقوبة، كما أغرق الله فرعون باليّم، وأرسل الريح العقيم التي أهلكت قوم عاد، وهكذا نجد أنّ أكثر العقوبات التي حلّت بالكافرين قد نفُذّت بواسطة قوى الطبيعة، مما يكشف لنا العلاقة الترابطية بين الانسان والطبيعة، وفي هذا الصدد يقول الإمام الباقر عليه السلام: «وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. إذا منعوا الزكاة منعت الارَض بركتها من الزّرع والثمار والمعادن كلّها» [2]. ويقول ولده الإمام الصادق عليه السلام: «إذا فشا الزِّنا ظهرت الزلازل، وإذا أمسكت الزكاة هلكت الماشية، وإذا جار الحكام في القضاء أمسك القطر من السماء..» [3].

وجملة القول أنّ الخوف الانساني يجب أن يتركز على الذنوب والخطايا التي تسبب تدمير المجتمعات ورفع البركات، أما الخوف من الطبيعة والاعتقاد بأنّ بعض ظواهرها شرور لا تجتمع مع النظام السائد على العالم أولاً وحكمته وعدله ثانياً، فإنما هو ناشيء من نظراتهم الضيّقة

(1) هود 11: 52.

(2) أُصول الكافي 2: 374 | 2 كتاب الايمان والكفر . دار صعب ط4.

(3) الخصال، للشيخ الصدوق 1 . 2: 242 | باب الاربعة . منشورات جماعة المدرسين عام 1403هـ.

المحدودة إلى هذه الامور، ولو نظروا الى هذه الحوادث في إطار النظام الكوني العام لأذعنوا بانها خيرٌ برمتها، فللوهلة الاولى تتجلى تلك الحوادث شراً وبلية، ولكن المتعمق بها يرى أنهّا مدعاة إلى الخير والصلاح، وأنها تكتسي لباس الحكمة والعدل والنظم، وتفصيل فلسفة البلايا والشرور في العالم موكول إلى علم الكلام، ولكن فيما يتعلق ببحثنا نعود ونؤكد بان

العقيدة الإسلامية أعادت صياغة عقل الانسان تجاه الطبيعة المحيطة به، بشكل يجعله أكثر حرية وتفاعلا وتسالما معها.

رابعاً: تحوير الانسان من الاساطير ومن الخرافة في الاعتقاد أو السلوك، من أجل رفع الحواجز الوهمية التي تحول دون استخدام طاقة العقل على نحو سليم، وكان الانسان الجاهلي على سبيل المثال يتفاءل ويتشائم بحركات الطير، فينطلق نحو العمل إذا اتجه الطير يميناً، ويتراجع عن العمل إذا اتجه الطير شمالاً، وكانت طبقة الكهان والمنجمين تحتل موقع الصدارة في السلم الاجتماعي وتخدع الناس بادعائها علم الغيب، وكان التطير يقيد الناس بحبال الوهم عن السعي والسفر، وكذا كان الاستقسام بالازلام، إذ يأخذ من قصد عملاً ثلاثة سهام، يكتب على أحدها: «إفعل» وعلى الآخر: «لا تفعل» ويترك الثالث هملاً، ويمد يده ليأخذ أحدها، فإن خرج الأول أقبل على عمله، وإن أصاب الثاني توقف، وإن خرج الثالث أعاد الكرة! وكان السحر متفشياً بين الناس ينذر بشر مستطير، فعملت العقيدة على محاربة هذه المظاهر، وكانت سبباً لتفتح العقول والسمو بالنفوس، وإخراج الناس من ظلمات الوهم والخرافة إلى نور العلم والحقيقة..

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منّا من تطيّر ولا من تطُيّر له، أو تكهن

أو تكُهّن له، أو سحر أو سحُر له» [1]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» [2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام قال: «الطيرة على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، وان شددتها تشددت، وان لم تجعلها شيئا لم يكن شيئاً» [3].

من جانب آخر حرَّرت العقيدة عقل المسلم من استنتاجات المنجّم، فاعتبرت المنجمّ كالكاهن، كلاهما يسعيان إلى تقييد حركة الإنسان في الحياة والتلبيس على عقله..

عن عبدالملك بن أعين، قال: قلتُ لابَي عبدالله عليه السلام: إنيّ قد ابتليت بهذا العلم. ويقصد التنجيم. فإذا نظرت إلى الطالع ورأيت طالع الشرّ جلست ولم أذهب، وإذا رأيت طالع الخير ذهبت في الحاجة؟ فقال لي: «تقُضى؟ قلت: نعم. قال عليه السلام: أحرق كتبك» [4].

ولا بدَّ من التنويه إلى أنّ مدرسة آل البيت عليهم السلام الالهية لا تعيب على النجوم كعلم طبيعي يتطلعّ الانسان من خلاله على معالم السماء التي تظلّه ليصل من خلال ذلك إلى عظمة الخالق، ولكن تعيب على البعض ادعاءه التوصل من خلالها إلى علم الغيب.

ومن الشواهد ذات الدلالة لسعي آل البيت عليهم السلام على تحوير الإنسان المسلم من عادة التنجيم المستحكمة التي أمتدّت إلى عصور متأخرة،

---

(1) كنز العمال 10: 113.

(2) كنز العمال 10: 113.

(3) وسائل الشيعة 8: 262.

(4) وسائل الشيعة 8: 268.

ماقاله أمير المؤمنين عليه السلام لبعض أصحابه لمّا عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قيل له: إن سرت يا أمير المؤمنين في هذا الوقت، خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم.

فقال عليه السلام: «أترّعم أنَّك تهدي إلى الساَّعة التي من سار فيها صرُف عنه السوء ؟ وتخوفّ من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرُّ ؟ فمن صدقّك بهذا فقد كذبّ القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه.. ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أيُّها الناس، إيّاكم وتعلمّ النجوُّم إلا ماّ يهتدُى به في بر أوٍّ بحر . إلى أن قال لهم . سيروا على اسم الله» [1].

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 105.

المبحث الثاني: بناء فكر الإنسان

للعقل مكانة كبيرة في الدين الإسلامي، فهو أصل في التوصل إلى الاعتقاد الصحيح، وهو دليل من أدلة الاجتهاد، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «.. ولكلّ شيء دعامة، ودعامة الدين العقل»[1].

ومن جانب آخر يشكّل العقل دعامة الانسان المؤمن، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان له عقل كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة»[2].

وقد بلغت النصوص التي تتناول التنبيه إلى دور العقل المئات، ومن خلال نظرة عامّة إلى هذه النصوص نكتشف أن مشروع الإسلام في إعطاء العقل دوره الحقيقي قد جاء على مرحلتين؛ فهو يبتدىء بتحرير العقل، ثم ينتقل إلى توجيه طاقاته.

تحرير العقل

هذه الخطوة الأُولى من خطوات المشروع الإسلامي المذكور نكتشفها في النصوص التي توجهت إلى نبذ القيود التي تقيّد العقل وتمدُّ من نشاطه الحقيقي، وتقوده إلى أخطاء خطرة بسبب ذلك.. وهذا ما نجده في نموذجين بارزين:

الأول: نبذ التقليد الأعمى: وأمثلته في القرآن الكريم كثرة جداً، نقرؤها في سور متعددة ومشاهد متعددة:

(1) المحجة البيضاء، المحقق الكاشاني 1: 172 كتاب العلم مؤسسة الاعلمي ط2.

(2) أُصول الكافي 1: 11 كتاب العقل والجهل.

فبينما كان يؤكد افتقارهم إلى أدنى حجّة ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة، ركزّ على أن كل ما يمتلكونه من حجّة هو أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، فتمسكوا به.. **(بَل قالُوا إنا وجدنا آباءنا عَلى أمة وإنا عَلى آثارهم مُهتدُون)**[1].

ثم يؤكد أنّ هذا هو ديدن هذا الصنف من الناس الذي أغلق على ذهنه المنافذ.. **(وكذلك ما أرسلنا مِن قبلك في قرية مِن نذيرٍ إلا قال مترفُوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا عَلى آثارهم مقتدون)**[2]. وهكذا يسوق مقولتهم هذه مرتين في آيتين متتابعتين ليجسّد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت، وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذّر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك **(أجِئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا)**[3]؟! حتى لو جاءهم متحدياً لما وجدوا عليه آباءهم مبيناً فساده.. **(قال أولو جِئتكُم بأهدى مما وجدتم عُليه آباءكم)**؟ حتى مع مثل هذه الاستثارة لا يبحثون عن برهان، ولا يفتحون نافذة للنظرة، بل وقفوا دائماً بتحجرهم الأول، و **(قالُوا إنا بما أرسلتم بِه كافِرون)**[4]، و **(قالُوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)**[5]!! ويكرّر القرآن النكير على هؤلاء في مواضع آخر، لأنه إنما يواجه في مشروعه

المعرفي نظريات استحكمت وترسخت لدى أُمم متتابعة، لا يستبعد أن يكون لها

(1) الزخرف 43: 22.

(2) الزخرف 43: 23.

(3) يونس 10: 78.

(4) الزخرف 43: 24.

(5) المائدة 5: 104.

امتداد في مستقبل الأُمم أيضاً. فلقد تجاوزت هذه النظرية حدود المعرف والمعتقدات إلى السلوك والمعاملات..(وإذا فَعلوُا فَاحِشة ًقالواُ وجدنا عليهَا آباءنا)[1]. و (قالُوا بل وجَدنا آباءنا كذلك يفعلونَ)[2] !!

بعد هذا يبيّن القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوماً مضوا على هذا النهج، مثوا ًالاذهان إلى ضرورة الحذر من نهج كهذا.. (فانتَقمنا منِهمُ فانظرُ كيف كَان عَاقبة المُكذبينُ)[3].

توجيه طاقة العقل

بعد أن حرّرت العقيدة الاِسلامية العقل من القيود التي تأسره، أطلقته إلى أمام وهي توجه طاقاته من خلال الالفات والتدبر في الكون والحياة، من أجل بناء متكامل ديناً ودنيا.. ويمكننا أن نشير إلى مجموعات من آيات الذكر الحكيم توجه العقل إلى آفاق رحيبة متعددة، منها:

أولاً: التدبر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي الانَفس:

قال تعالى: (إنَّ في خلَق السموَّات والارضَ واختلاف الليل والَّنهار لَّآيات لاوَلي الالبُاب * الَذين يذكرونَّ الله قياماُ وقعَودا وعلى جُنوُبهم ويتفكروَّنُ فيَ خلق اَلسموات والارض ربَنا ما خَّلقت هذا باطَلاً سبحانكً فقنا عذَابَ النَارِ)[4].

(1) الاعراف 7: 28.

(2) الشعراء 26: 74.

(3) الزخرف 43: 25.

(4) آل عمران 3: 190 . 191.

(وفي الاَرض آيتٌ للموُقنين * وفي أنفسكُم أفلُا تبصرُون)[1].

(قُلِ انظروُا ماذا في السموَّات والارضَ..)[2].

(فلينظُر الاِنسانُ مم خّلقُ)[3].

(فلينظُرِ الانسانُ إلى طعامَه)[4].

(أفلا يَنظرُوْن إلى الابلِ كيف خلقتْ *وَالى السمآء كيفِ رفعتَ *وإلَى الجبالِ كيف نصبت َ*وُالى َالارض كيف سَطحت * فذَكِّر إنمآ أنت مَذكِّر)[5].

ومما يلفت النظر عناية القرآن بذكر مشاهد الكون عناية كبيرة من خلال تكرار عرضها في أكثر من سورة، عرضاً متنوعاً، ودعوته الانسان بإلحاح إلى النظر والتأمل فيها، والتفكر في مجرى حوادثها، والاهَم من ذلك كلهّ جعل هذا الكون منطلقاً للوصول إلى الله تعالى خالقه ومبدعه.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقرأ: (إنَّ في خلق السمَّوات والارضَ واختلافِ الليل والَّنهار لآيات لاولُي الالبابَ * الذينَّ يذكرونَ اُلله قيَاما وَقعوداَ وَعلىُ جنوبِهم ويتفكُرُونِ فِي خلقَّ السموَات والارضِ ربنَّا ماخِلقت َهذا بَاطِلا ًسبحُانك َفقنا َعذَاب النارَ)[6]، ويقول: «ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكرّ فيها» وفي رواية أخُرى: «ويل لُمن لاكها بين فكيه ولم

---

(1) الذاريات 51: 21 ـ 22.

(2) يونس 10: 101.

(3) الطارق 86: 5 . 6.

(4) عبس 80: 24.

(5) الغاشية 88: 17 . 21.

(6) آل عمران 3: 190 . 191.

يتأملها».

وعن الإمام علي عليه السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول: (إنَّ في خلَق السموَّات والارضَ واختلاف الليل والَّنهار لآيَات لاولَي الالبُاب * الذَين يَذكرونَّ الله قيَامًا وقعودا وَعلى جُنوُبهِم ويتفكروَّنُ فيَ خلق اَلسموات َّوالارِض ربَنا ما خلقَّت هذا َباطلا سبحانكِ فقَنا ُعذاب َالنارَ)[1].

وقد سلك الأئمة الاطَهار عليهم السلام طريق الاستدلال على وجود الله تعالى من خلال التأمل العقلي في الكون وما فيه من نظم دقيق وتناسق بديع، وهو الدليل الذي أطلق عليه المتكلمون «دليل النَّظم».

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ولو فكَّروا في عظيم القُوة، وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة، ألا ينظرون إلى صغير ما خلق، كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه، وفلق له السّمع والبصر، وسوّى له العظم والبشر !

انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها

وضنّت على رزقها... ولو فكّرت في مجاري أكلها، وفي علوها وسفلها، وما في الجوف من شواسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأُذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً...

فانظر إلى الشمس والقمر،... وتفجّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال،

(1) راجع الكشاف، للزمخشري 1: 453.

وطول هذه القلال، وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات..

فالويل لمن أنكر المقدِّر، وجحد المدبّر، زعموا أنهّم كالنباتّ ما لهمزراع،ولّا لاختلاف صورهُم صانع، ولم يلجؤوا إلى حُجّةٍ فيما ادعّوا،ولاتحقيق لما أوعوا..

وهل يكونُ بناءٌ من غير بانٍ، أو جناية مّن غير جانٍ!»[1].

ومن ناحية أُخرى يثير القرآن الكريم في الاذهان دواعي التفكر الجاد والمثمر في ما يعرضه من معارف، فمرّة بصيغة الاستفهام الاستنكاري، كقوله تعالى: **(أفحَسبتمُ أنمّا خلقناكمَ عُبثا)**[2].

ومرّة بصيغة النفي للتصورات الساذجة، كقوله تعالى: **(وما خَلقنَا السمَّوات والارضَ وَما بينهمَا لاعبين * ما خلقناهمآ إلا بالحقّ ولكن أكثَرهم لايُعلمونَ)**[3].

والمعروف أنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تجعل التفكّر في ملكوت السماوات والارَض عبادة، بل أفضل عبادة، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته»[4].

وكان أتباع هذه المدرسة العالية وتلامذتها يكثرون من هذه العبادة الفكرية التي تُسهم بصورة فعّالة في بناء الانسان وايصاله إلى مراتب عرّفانية عالية. فعلى سبيل المثال، كانت أكثر عبادة أبي ذرّ؛ التفكر

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 270 ـ 271.

(2) المؤمنون 23: 115.

(3) الدخان 44: 38 . 39.

(4) أُصول الكافي 2: 55 | 3 كتاب الإيمان والكفر.

والاعتبار وقد سئلتُ أمّ أبي ذرّ عن عبادة أبي ذرّ فقالت: «كان نهاره أجمع يتفكر في ناحية من الناس»[1].

وينبغي معرفة أنّ النظرة العامة الى الوجود التي يرشد إليها الثقلان . القرآن والعترة . هي الاصَل الذي تنبثق منه جميع نظرات الإنسان الفكرية واتجّاهاته السلوكية، وهي الاسَاس في اختلاف الحضارات والثقافات.

ثانياً: النظر في سنن التاريخ: حيثُ دعتنا العقيدة إلى تأمل أحداث التاريخ بنظر ثاقب، وفكر فاحص، وصولا إلى العوامل

التي كانت سبباً في تدهور المجتمعات، وسقوط الحضارات، أو نموّها، قال تعالى: **(قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)**[2].

وقال تعالى: **(ألَمَ يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنهم في الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهر تجري من تحتهم فأهلكنهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا ءآخرين)**[3].

وقال تعالى: **(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين)**[4].

إنّها دعوة تلح على الناس أن يحركوا عجلة عقولهم، وينظروا في تاريخ من قبلهم، حتى لا يكونوا كالقطيع التائه يسير بلا راع نحو المجهول، وهي

---

(1) تنبيه الخواطر، الامير ورّام بن أبي فراس 1: 250 باب التفكر ـ دار صعب.

(2) آل عمران 3: 137.

(3) الانعام 6: 6.

(4) يونس 10: 13.

دعوة ذات منهج مرسوم من أجل الاستفادة من تجارب الحضارات السابقة ودراسة أسباب سقوطها، لا سيّما وأنّ التاريخ يعيد نفسه قال تعالى: **(سُنَّةَ الله في الذين خلوا من قبل ولَنْ تجد لسُنةِ الله تبديلا)**[1]. ولابدَّ من التنويه على «أنّ دور الدين ومسؤوليته في حياة الإنسان هو إيجاد جوّ من الملائمة والانسجام بين سلوك وتفكير الانسان وبين سنن الله تعالى في الحياة، وتحويل مجرى حياة الإنسان إلى تيار هذه السنن الإلهية التي جعلها الله نظاما لخلقه وتكوينه في هذا الكون»[2].

فالدين يوجّه فكر الإنسان إلى النظرة العميقة والهادفة، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين النظرة السطحية الساذجة للحياة والتاريخ، وبين النظرة العميقة والمتفحصة التي لا تقتصر على ملاحظة الشيء أو الحدث، وإنّما تنفذ إلى أعماقه، وترصد لوازمه ودلالاته بغية استنباط السُنّة التاريخية التي تنطبق عليه، فعلى سبيل المثال يمر السائح على أهرامات مصر، فينبهر لروعة بنائها، وشدة ارتفاعها، ويتمتع بمنظرها وينتهي كل شيء. أما المفكّر الواعي المتسلح بالعقيدة، فعندما يمر عليها، ترتسم في ذهنه عدَّة تساؤلات: عن قدرات الإنسان، وعن الظلم الذي كان سائدا آنذاك من خلال تسخير الفراعنة لاعداد كبيرة من الناس للعمل في بناء هذه الاهرامات، وما لاقوه من العناء والتعب وصنوف التعذيب، كما يستنتج ما تنطوي عليه فكرة الفراعنة الخاطئة عن الموت والبعث، بل يتزود المؤمن الواعي بعد تلك المعارف بالعبرة النافعة وهو يشاهد غرائبها فيتساءل في نفسه، أين ساكنيها وما مصيرهم ؟!

---

(1) الأحزاب 33: 62.

(2) دور الدين في حياة الإنسان، للشيخ الآصفي: 121 ـ 122 ـ دار التعارف ط2.

من أجل ذلك يرشد آل البيت عليهم السلام إلى أهمية الملاحظة الواعية والنَّظرة العميقة التي لا تقتصر على ظواهر الأمور، بل تنفذ إلى الأعماق، ومانتطوي عليه من أبعاد، ودلالات تضمنية أو الزامية. فعن الحسن الصيقل، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة ؟ قال عليه السلام: «نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: تفكّر ساعة خير من قيام ليلة» [1].

ولمّا مرَّ أمير المؤمنين عليه السلام بخرائب المدائن، أعطى لأصحابه درساً حول العبرة من التأريخ، قال عليه السلام: «إن هؤلاء القوم كانوا وارثين، فأصبحوا مورثين، وإنّ هؤلاء القوم استحلّوا الحرام فحلّت فيهم النقم، فلاتستحلوا الحرام فتحل بكم النقم» [2].

وقال عليه السلام: «فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته..» [3].

وذهب الإمام علي عليه السلام إلى أبعد من ذلك، عندما أشار إلى أن السنّة التأريخية تنطبق على الجميع، في كل مكان وزمان، ولا تقتصر على تدمير الكافرين والمستكبرين، بل تطال المؤمنين أيضاً، إذا لم يلتزموا ـ عملياً ـ بالمنهج الالهي في الحياة، وإذا حادوا عن جادّة الصواب وذلك حين تختلف الكلمة وتسود الفرقة، وفي هذا الصدد يقول عليه السلام: «وتدبَّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء.. فانظروا كيف كانوا حيثُ كانت الأملاء مجتمعة والأهواءُ مؤتلفة..

(1) بحار الانوار 71: 325، عن المحاسن: 26.

(2) كنز العمال 16: 205.

(3) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 290.

فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أُمورهم حين وقعت الفرقة، وتشتَّت الالفة، واختلفت الكلمة والافئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرّقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» [1].

وكان من جملة وصيته الذهبية لابنه الحسن عليه السلام يحثه على التفكر في أحوال الأمم الماضية، وهو ما يسمى اليوم بـ «فلسفة التأريخ»: «أيْ بُنيَّ إنيّ وان لم أكن عمرتُ عمرُ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عُدتُ كأحدهم، بل كأني بما انتهى إليَّ من أمورهم قد عمرتُ مع أولهمّ إلى آخرهم..» [2].

ثالثاً: النظر في حكمة التشريع: والغرض من ذلك ترسيخ قناعة المسلم بتشريعه وصوابيته وبيان صلاحيته للتطبيق في كلّ زمان ومكان، من أجل أن تنقشع عن فكر المسلم غيوم الشبهات التي يثيرها أعداء العقيدة من حوله. وإذا كانت بعض أحكام الدين الإسلامي توقيفية، تدعو المسلم نحو التسليم بها، ولا يجدي معها إعمال العقل، كالأمور العبادية، إلا أنّ هناك تشريعات

في الإسلام ذات أبعاد اجتماعية كشف القرآن لنا عن الحكمة الكامنة من وراء تشريعها لمصالح تعود إلى الفرد والمجتمع، من قبيل قوله تعالى: **(ولكُم في القِصاص حِياة يأُولي الالبابَ لعلِكم تتَّقُون)** [3].

(1) نهج البلاغة: 296 ـ 297.

(2) نهج البلاغة: 393 . 394.

(3) البقرة 2: 179.

وقوله تعالى: **(ما يُريدُ الله ليجعَلَ عَليكم منْ حرج ولكن يريد لِيطهرُكم وُليتِمُ نعمّتهُ عليكُم)** [1].

كما كشفت لنا السُنّة عن جوانب كثيرة من حكمة التشريع، وعلى سبيل المثال: كتب الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله: «حرّم الله قتل النفس لعلّة فساد الخلق في تحليله لو أحلّ وفنائهم وفساد التدّبير.. وحرّم الله تعالى الزنا لما فيه من الفساد من قتل الانفس وذهاب الانساب وترك التربية للاطفال وفساد المواريث وماأشبه ذلك من وجوه الفساد..» [2].

رابعاً: توجيه العقل إلى النظر، والتثبت في الرأي، واستقلالية التفكير والقرار:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تكونوا إمّعة، تقولون: إنْ أحسنَ الناس أحسنا، وان ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنَ الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن لا تظلموا» [3].

قال تعالى: **(أفلا يَتدَبرّون القرآنُ أمَ على قلوبُ أقفالِها)** [4].

نداء بليغ إلى النظر وإعمال الفكر، من خلال الاستنكار على السطحيين والمغفّلين المعاندين، أولاً، ثم من خلال التقريع العنيف لهذه الأصناف من الناس، ثانياً.

(1) المائدة 5: 6.

(2) من لا يحضره الفقيه 3: 369.

(3) موازن الحكمة 8: 254 ، عن الترغيب والترهيب 3: 341.

(4) محمد 47: 24.

وقال تعالى: **(قُلْ هاتوا برهانكم إنْ كنتم صادقين)** [1].

فلا قيمة لدعوى لا تستند إلى برهان صحيح، وإذا كان الزمخشري قدرأى أنَّ هذا النصّ هو «أهدم شيء لمذهب المقلدين» [2]. فإنَّ فيه ما يفيد أكثر من ذلك، إذ قد ينصرف لفظ المقلّدين إلى من غلب عليهم التقليد، لكن هذا النص حاكم على دائرة الفكر البشري بكامل أجزائها ونواحيها، فقد يقع المفكرون . وكثيراً ما وقعوا . بأغلاط كبيرة نتيجة اعتمادهم بعض الكليات

العامّة التي استقر في أذهانهم أنها بديهيات لا تحتاج إلى برهان، بينما لم تكن هذه الكليات في حقيقة أمرها إلاّ تصورات صادرة عن أوهام أو قصور في العقل. وهذا كثير في أغلاط أهل الجدل، بل قد يقع أحياناً حتى في العلوم التطبيقية، حين ينُظر إلى بعض الاستنتاجات على أنّها قوانين علمية ثابتة، في حين أنّها استنتاجات قائمة على ملاحظات ناقصة، وهكذا نلمس مدى أكبر لدعوة القرآن الكريم إلى تقديم البرهان التام على كلِّ مقولة ودعوى وسواء كانت في العلوم العقلية، أو في العلوم التطبيقية.

ولا شك أنّ مساحة النظر والتدبّر واسعة، سعة المعارف والمواقف، وسنشير هنا إلى أثرين مهميّن:

أحدهما عام عموم النص القرآني المذكور، وإن استهدف في ظاهره العقل المقلّد والمتابع، شأن طوائف الناس الذين يغلب عليهم التقليد في عقائدهم ومواقفهم.

(1) البقرة 2: 111، النمل 27: 64.

(2) الكشاف 1: 178.

والآثر الثاني، مما جاء في لون خاص من ألوان المتابعة والتقليد، وهو التقليد الأعمى لأشخاص استقر لهم في النفوس موقع كبير، تلاشى إلى جنبه دور العقل وأثره في النظر والتفكير والنقد، وكأن هؤلاء الاشخاص قد أصبحوا في أنفسهم موازناً للحق، فلا يصحّ أن توزن أقوالهم وأعمالهم أو تعرض للنقد والنظر، هذا النوع من التقليد الذي كان ولا يزال مصدراً للكثير من الأخطار في العقائد والمواقف.. وقف إزاءه أمير المؤمنين عليه السلام موقف الكاشف عن سرِّ الخطأ فيه والمعلمّ للطريق الصحيح في التماس المعارف، ذلك حين جاءه بعض من ذهله وقوف طلحة والزبير وعائشة في صف واحد إزاء أمير المؤمنين عليه السلام فاستنكر أن يجتمع هؤلاء على خطأ، وذكر ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام فأجابه عليه السلام مبتدءاً جوابه بالتنبيه إلى مصدر الوهم، منتقلاً بعد ذلك إلى اعطائه المنهج السليم في المعرفة، فقال له عليه السلام: «إنك ملبوس عليك، إن دين الله لا يعرف بالرجال، بل بآية الحق، فاعرف الحق تعرف أهله» [1].

خامساً: توجيه الانسان إلى كسب العلم والمعرفة:

من المسلّمات التي لا تحتمل جدلاً، أنّ الدين الاسلامي يحث بقوة على كسب العلم والمعرفة، ومن يتأمل سور القرآن الكريم يجد ذلك يتكرر كثيراً تصريحاً أو تلميحاً:

(.. قُل هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يَعلمونَ إنما يتذكرَ أولُوا الالبابَ) [2].

(1) أمالي الطوسي: 625 | 1292 مؤسسة البعثة. بحار الأنوار 39: 239 | 28.

(2) الزمر 39: 9.

(1)

(.. يَرفَعِ اللهُ الذينَ ءامنوا مُنكم والذين أوتوا العلم دَرجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبير)[1].

(وقُلْ ربِّ زِدني علما)[2].

(إنّما يخشى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ)[3].

ولأهمية العلم فقد أخذ الله تعالى الميثاق على أهل الكتاب من أجل تبيينه، وعدم احتكاره: (وإذ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أوتوا الكتابَ لتبيُنُنهُ للنَّاسِ ولا تكتمونه..)[4].

وبعد آيات القرآن تأتي أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته الأطهار عليهم السلام حيثُ تصبُّ في هذا الاتجاه، وتقرُّ بأنّ العلم يشكلِّ عماد الدين وفيه حياة الاسلام، وتحث عُلى طلبه، وتكشف عن فضيلته، فمداد العلماء . في نظر الإسلام . أفضل من دماء الشهداء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وفي هذا الصدد: يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «طلبُ العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحجّ والجهاد في سبيل الله»[5] ويكفي الاستشهاد بكلمة الإمام علي عليه السلام العميقة المعنى: «قيمة كلِّ أمرءٍ ما يحُسنه»[6]. في الدلالة على حثِّ أهل البيت عليهم السلام على كسب العلم

---

(1) المجادلة 58: 11.

(2) طه 20: 114.

(3) فاطر 35: 28.

(4) آل عمران 3: 187.

(5) كنز العمال 10: 131| 28655.

(6) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 482 | حكم 81.

والمعرفة.

إمعن النظر في هذه المقارنة البديعة التي يعقدها الإمام علي عليه السلام لكميل بن زياد النخعي حول تفضيل العلم على المال، قال عليه السلام: «يا كُميل العلمُ خيرٌ من المال، العلم يُحرَسكُ وأنت تحرس المُال، والمال تنقصُه النفقةُ والعلم يزكو على الانفاق، وصنيعُ المال يزول بزواله.

يا كميل بن زياد، معرفةُ العلم دينٌ يدان بُه، به يكسب الانسانِ الطّاعة في حياته، وجميل الاحدوثُة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمالُ محكوم عليه.

يا كميل، هلك خُزّانُ الاموال وهم أحْياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[1].

ونتيجة لهذا الزاد المعرفي الغني، انطلق الإنسان المسلم من أسر الجهل والتخلف إلى آفاق العلم الواسعة، فأخذ يتأمل الظواهر الكونية، ويكتشف أسرار الطبيعة، من خلال المنهج التجريبي الذي وجهته عقيدته إليه، وهو المنهج الذي قام عليه العلم

الحديث.

يقول: (جِب) في كتابه: الاتجاهات الحديثة في الاِسلام: «أعتقد أنهّ من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون، قد ساعدت على تقدّم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة، وأنّه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى

(1) نهج البلاغة: 496 | حكم 147.

أوروبا في العصور الوسطى» [1].

وللاِنسان أن يقف مبهوراً أمام عظمة العقيدة الاِسلامية، التي أحدثت ذلك الانقلاب الحضاري في نفوس أبناء الصحراء حتى صاروا طليعة العالم كلّه في العلم والمعرفة وسائر جوانب الحضارة والمدنية.

العلم والاِيمان

وتجدر الاشارة إلى أنّ العقيدة تربط العلم بالايمان، فالعلم بدون إيمان كغرس بلا ثمر، العلم يدعو إلى الايمان، والايمان بدوره يحث على العلم، والفصل بينهما يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها.. يقول الشهيد مرتضى المطهري: «قد أثبتت التجارب التأريخية، أنّ فصل العلم عن الايمان قد أدى إلى أضرار لا يمكن تعويضها، يجب معرفة الايمان على ضوء العلم، والايمان يبتعد عن الخرافات في نور العلم، وبفصل العلم عن الايمان يتحول الايمان الى الجمود والتعصب الأعمى والدوران بشدة حول نفسه، وعدم الوصول إلى مكان، والمكان الفارغ من العلم والمعرفة ينقلب فيه المؤمنون الجهلة إلى آلة بيد كبار المنافقين، والذي رأينا ونرى نماذج منهم في خوارج صدر الاِسلام، والانوار التي تلت بصور مختلفة.. والعلم بلا إيمان سراج في منتصف الليل بيد لص لسرقة أفضل البضائع، ولهذا فإنّ الاِنسان العالم بلا إيمان اليوم، لا يختلف عن الجاهل بلا إيمان في الأمس أقل الاختلاف، من حيث طبيعة الأساليب والافعال وماهيتها» [2].

(1) راجع كتاب منهج التربية الاسلامية، محمد قطب: 119 ـ دار دمشق ط2.

(2) الانسان والايمان، للشهيد المطهري 1: 15 طبع وزارة الارشاد الاسلامي.

وعليه فالعلم بحاجة إلى الايمان كحاجة الجسد إلى روح، لأنّ العلم لوحده عاجز بطبيعته عن بناء الاِنسان الكامل، فالتربية العلمية الخالصة تبني نصف إنسان لا إنساناً كاملاً، وتصنع إنسانا قد يكون قويا وقادرا ولكنه ليس فاضلا بالضرورة، هي تصنع إنساناً ذا بعد واحد، هو البعد المادي، أما الايمان فإنهّ يصوغ الشخصية في مختلف الابعاد.

ولقد بلغ اغترار الأوربيين بالعلم حدا وصل إلى حد التأليه والعبادة، وان لم يقيموا شعائره العبادية في كنائسهم، ولما كان الدين يرتكز على قواعد غيبية، خارج نطاق المادة، اعتبروه ظاهرة غير علمية.

وعلى هذا الأَساس ظهر بينهم داء الفصل بين الدين والعلم، وهو توجّه غريب عن منهج الاِسلام، «وليس أدل على هذا التماسك بين الايمان والعلم من هذه الدعوة الملحّة، في الدين إلى طلب العلم والاستزادة منه في كل مراحل العمر، وفي كلّ الحالات.. ومن هذه القيمة الكبرى التي يعطيها الدين للعلم والعلماء.

وإذا كان هناك صراع بين العلم والدين في بعض فترات التأريخ، كما حدث ذلك في تأريخ المسيحية، فإنّ ذلك لا علاقة له بالدين، وإنّما هو لون من ألوان الانحراف عن الدين، ولا يكون الدين مسؤولاً عما يرتكب الناس بحقه من انحراف»[1].

ومما يؤسف له، أنّ بعض الاَصوات ترتفع هنا وهناك تنادي بالفصل بين العلم والدين، بدعوى أنّ أوربا تنكرت للدين فتقدمت علمياً وحضارياً، ونحن تمسكنا بالدين فتخلفنا، إن عقول هؤلاء إما قاصرة عن

(1) دور الدين في حياة الانسان، للشيخ الاصفي: 69 ـ دار التعارف ط2.

إدراك وظيفة العلم الذي هو أداة لكشف الحقائق الموضوعية، وتفسير الواقع تفسيراً محايداً بأعلى درجة من الدقة والعمق. أو أنّ هذه العقول جاهلة بمنهج الاِسلام الذي ماانفك يدعو إلى العلم، وأغلب الظن أنها عقول مأجورة تؤدي مزاعم الاعداء والحاقدين على الاِسلام، وتغضّ الطرف عن العواقب الروحية الجسيمة، التي حصلت من جراء فصل العلم عن الدين: «وأوضح الاَمثلة على ذلك، هذا العصر الذي نعيش فيه، العصر الذي وصل فيه التقدم العلمي والمادي ذروته، ووصلت الاِنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي يقطع أواصر الاِنسانية، ويجعلها تعيش في رعب دائم وخوف من الدمار، كما وصلت إلى الحضيض في تصورها لاَهداف الحياة وغاية الوجود الاِنساني وحصوها في اللذّة والمتاع، وانحطاطها تبعاً لهذا التصور . إلى أحطّ دركات الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي يعف عنها الحيوان»[1].

وعليه فإنّ العقيدة الاِسلامية لها فضل كبير على مناهج التربية التي تسعى لبناء الاِنسان، لتأكيدها على دور الايمان والعلم معاً في بناء شخصية الاِنسان، وبفصل العلم عن الايمان يغدو الاِنسان كإبرة مغناطيس تتأرجح بين الشمال والجنوب، وعليه فهو بحاجةٍ ماسة إلى قوة تتمكن من إيجاد ثورة في ضميره، وتمنحه اتجاهاً أخلاقياً يحقق إنسانيته، وهذا عمل لا يتمكن منه العلم بمعزل عن الدين.

(1) منهج التربية الاسلامية، محمد قطب: 115.

الفصل الثاني

البناء الاجتماعي والتربوي

قامت العقيدة بدور تغييري كبير على صعيد البناء الاجتماعي والتربوي، يمكن الإشارة إليه من خلال النقاط التالية:

أولاً: إثارة الشعور الاجتماعي

لقد كان إنسان ما قبل الإسلام يتمحور في سلوكه الاجتماعي حول ذاته، وينطلق في تعامله مع الآخرين من منظار مصالحه وأهوائه، وينساق بعيداً مع أنانيته. ولقد هبط في القاع الاجتماعي إلى درجة «الوأد» لابَنائه، خشية الفقر والمجاعة، الامرَ الذي استدعى التدخل الإلهي، لإنقاذ النفوس البريئة من هذه العادة الاجتماعية القبيحة، قال تعالى: **(ولا تَقتلُواْ أولادكمَ خُشيَة إملَاق)** [1].

على أنّ أشد ما يستوعي الانتباه، أنّ ذلك الانسان الجاهلي، الدائر حول ذاته ومنافعها، قد غدا بتفاعله مع إكسير العقيدة، يضحي بالنفس والنفيس في سبيل دينه ومجتمعه، وبلغت آفاق التحول في نفسه إلى المستوى الذي يُؤثِر فيه مصالح أبناء جنسه على منافع نفسه.

(1) الاسراء 17: 31.

وليس بخفيّ على أحد مستوى الإيثار الذي أبداه الانصَار مع المهاجرين، إذ شاطروهم في كل مّا يملكون، وحتى في بيوتهم وأمتعتهم، ولم ينحصر هذا المستوى من الايثار بأفراد، بل شكّل ظاهرة اجتماعية عامّة لم يشهد لها تاريخ الانسانية نظيراً.

وفي هذه الظاهرة تزل قرآن كريم يبارك هذه الروح، ويخلّد ذكر مجتمع تحلّى بها، كنموذج من نماذج التلاحم الاجتماعي والمؤاخاة.. قال تعالى: **(لِلفقُرَآءَ المهاجرِينَ الذينَ أُخرجوَا مُن ديارهم وأموالهم يبتغونَ فضلاً منَ اللهَ ورَضوانًا وَينصرونَ اللهَ ورَسولَه أولئكُ همَ الصادقونَ * والذينَ تبوءوَ الدارَ وَالايمانَ منَ قبلهم يحبونَ منَ هاجرَ إليهمولا يجدونَ في صدورهم حَاجةً ممآ أوتوا ويُؤثرونَ علىَ أنفسهم ولوَ كانَ بهمَ خصاصةٌ ومنَ يوقَ شحّ نفسه فأولئك همَ المفلحونَ)** [1].

وينقض الإسلام أُسساً في البناء الاجتماعي الجاهلي قوامها تعزيز التقسيم الطبقي والقبلَيَ للمجتمع، الذي كان يتشكل من طبقتين أساسيتين؛ طبقة الأشراف، وطبقة العبيد، ولا بدّ لابنَاء طبقة الاشرَاف أن يبقوا هكذا، تجتمع لديهم الثروات ويحتكرون الشأن والوجاهة، ولابدَّ لابَناء طبقة العبيد أن يبقوا هكذا يدورون في فلك الاسَياد.. فقوّض الاسلام هذه الاسسُ وأقام محلها أُسساً جديدة تسوي بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة، قال تعالى: **(يا أيُّها الناسُ إناّ خلقَناكمَ مُن ذكرٍ وَأنثَى وجُعلناكمَ**

(2)

شُعُوبا وَقبائَل لتَعارِفوَا إنُ أكرمكم عندَ ألله أتقاكم) ، فتحرر أبناء طبقة العبيد وملسوا حقهم في الحياة، وارتفع عمار وسلمان وبلال عالياً فوق طبقة أشراف قريش التي مازالت تتخبط في ضلالات الجاهلية،

(1) الحشر 59: 8 ـ 9.

(2) الحجرات 49: 13.

كالوليد بن المغيرة وهشام بن الحكم وأبي سفيان وأمثالهم..

وحتى الأموال لم تعد حكراً على الاغنياء ليتداولوا فيما بينهم، قال تعالى: (مَّآ أفآء الله عُلىَ رسوَلهُ منِ أهلِ القوىِ فللهُ وَللِرسَّوُلِ ولِذيَ القربىُ واليتامَى والمساكين وابنِ السَبيلِ كي لّا يكونَ دولة بَينُ الاغنيآءٌ منكمَ وما آتاكم الرسولُ فخذوه وماُ نهَاكُم عنه فُانتَهواَ واُتقوا اللّهُ إن الله شَّديد العقَابِ)[1].

أساليب تنمية الشعور الاجتماعي

لقد نمّت العقيدة الشعور الاجتماعي لدى الفرد بوسائل عديدة، منها:

أ . إيقاظ الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين:

من خلال تأكيد القرآن الكريم على مسؤولية الإنسان تجاه نفسه وغيره، كقوله تعالى: (وقِفوُهمُ إنهمَّ مسؤولونُ)[2]، وقوله تعالى: (ياأيُّها الذَّين ءآمنواُ قوا أنفسكمُ وَأهليكم نزاُ..)[3].

وقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّي مسؤول وانكّم مسؤولون»[4].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «ألا كلكّم راعٍ وكلكمّ مسؤول عن رعيته، فالاميرَ الذي على الناسّ راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرَّجلُ راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة

(1) الحشر 59: 7.

(2) الصافات 37: 24.

(3) التحريم 66: 6.

(4) كنز العمال 5: 289.

عنهم..»[1].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اتّقوا الله في عباده وبلاده، فإنكّم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم..»[2].

وكنظرة مقارنة، نجد أنّ المذاهب الاجتماعية الوضعية، بنُيت على أساس المسؤولية الفردية في هذه الحياة فحسب، وتأييدها بمؤيدات قانونية كحجز الحرية، أو التعذيب، أو التغريم المالي أو العزل عن الوظيفة، أو التسريح عن العمل، أو المكافأة بالمال

أو الترقية في الوظيفة.. وما إلى ذلك، وبمؤيدات اجتماعية كالثقة أو حجبها والتقدير أو التحقير.

أما المذهب الإسلامي، فلا يقتصر على مسؤولية الفرد أمام المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه في هذه الحياة، وإنّما ينُميّ في الفرد المسؤولية العظمى أمام الخالق العظيم في حياة أُخرى، وحينئذ يدفعه إلى التحديد الذاتي أو الطوعي لرغباته، والشعور الاجتماعي نحو غيره، بغض النظر عن القانون أو العرف أو الضمير، لأنّ الضمير قد يعجز عن مواجهة الغرائز عند فقدان العقيدة الدينية، كما أنّه ليس من الميسور توفير الرقابة الاجتماعية في كلّ مكان، وبصورة دائمة، وعليه فإنّ هذه الرقابة الداخلية لا توجد في غير العقيدة الدينية.

ب . تنمية روح التضحية والايثار:

لقد حثَّ القرآن الكريم على الايثار، وأشاد بروح التضحية التي اتّصف

---

(1) صحيح مسلم 3: 1459 كتاب الامارة ـ دار احياء التراث ط1.

(2) نهج البلاغة، خطبة 167.

بها المسلمون، فلمّا بات علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يفديه بنفسه، فيؤثره بالحياة، أشاد الله تعالى بهذا الموقف التضحوي الفريد، فأنزل: **(ومِنَ النّاسِ مَن يَشْرِي نَفسَهُ ابتغاءَ مرضات اللهِ واللهُ رؤوفٌ بالعبادِ)** [1].

يقول الفخر الرازي: «... نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، بات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة خروجه إلى الغار، ويروى أنّه لمّا نام على فراشه قام جبريل عليه السلام عندرأسه، وميكائيل عندرجليه، وجبريل ينادي: بخٍ بخٍ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة، ونزلت الآية» [2]

وقدّمت السيرة المطهّرة القدوة الحسنة في هذا المقام، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنهّ ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شاء لشبع، ولكنه كان يؤثرُ على نفسه [3].

وهذا السلوك النبوي، ظهرت بصماته واضحة في سلوك أهل بيته عليهم السلام، الذين يسيرون على نهجه، ويترسمون خطاه، ويترجمون أقواله إلى واقع عملي ملموس: «.. عن محمد بن كعب القرظي، قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «لقدرأيتني وإنّي لأربط الحجر على بطني من الجوع، وانّ صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار» [4]، كلّ ذلك لأنّه كان يؤثر على نفسه، ويفضلّ مصلحة غيره على مصلحته.

---

(1) تفسير مجمع البيان 1: 174. والآية من سورة البقرة 2: 207.

(2) التفسير الكبير، للفخر الرازي 5: 223.

(3) تنبيه الخواطر، للامير ورّام 1: 172 باب الايثار.

(4) أُسد الغابة، لابن الاثير 4: 102 | 3783 . دار احياء التراث العربي.

قال أبو الفوار . بياع الكوابيس .: أتاني علي بن أبي طالب عليه السلام: ومعه غلام له، فاشترى مني قميصَيّ كوابيس، فقال لغلامه: «اختر أيُّهما شئت»، فأخذ أحدهما، وأخذ علي الآخر فلبسه [1] .

ومن الشواهد التأريخية، التي تدل على ذلك التحوّل الاجتماعي الكبير الذي أحدثته العقيدة، في فترة وجيزة، أنّه أهُدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأس شاة، فقال: إنّ أخي فلاناً أحوج إلى هذا منّا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات حتى رجعت إلى الأوّل [2] .

هكذا تربي العقيدة الإنسان المسلم على الشعور الاجتماعي، شعور الفرد نحو غيره، فيتجاوز دائرة الذات إلى دائرة أرحب هي دائرة العائلة، ثم تتسع اهتماماته لتشمل دائرة الجوار، ثم أبناء بلدته، وبعدها أبناء أمته، وفي نهاية المطاف تتسع لدائرة أكبر فتشمل الإنسانية جمعاء.

جـ . تنمية الشعور الجماعي:

وفي هذا الصدد، نجد فيض من الأحاديث التي تحثُّ الفرد على الانضمام للجماعة والانسجام معها، والانصباب في قالبها، بعد أن ثبت عند العقلاء بأنّ في الاجتماع قوة ومنعة، وبعد أن أكد النقل على أنّ الله تعالى قد جعل فيه الخير والبركة، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «يدُ الله مع

(1) أُسد الغابة، لابن الأثير 4: 103.

(2) أسباب النزول، لابي الحسن النيسابوري: 281 . انتشارات الرضي. وفي طبعة عالم الكتب: 235.

الجماعة، والشيطان مع من خالف الجماعة يركُضُ» [1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» [2]

وفي كلّ ذلك دليل قاطع على أنّ الاسلام دين اجتماعي، يحاول ربط الفرد بالجماعة، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهنا لا بدَّ من التنبيه على أنّ الحكام الظلمة، قد استغلوا مفهوم «الجماعة» أبشع استغلال لتثبيت سلطانهم والمحافظة على عروشهم، فاخذوا يصبّون جام غضبهم على كلّ من يجهر بكلمة الحق ويقوم بمعارضة تسلطهم اللامشروع، ويفضح أساليبهم غير الإسلامية، وكان الامَويون . الذين اتخّذوا مال الله دولاً وعباده خولا . يَقتلون كل من خرج عليهم بحجة أنه مّفرق للجماعة، وكذلك سار العباسيون على ذلك النهج، بل وتفوّقوا على الامَويين في ابتكار أساليب القتل والتعذيب.

ومن يتصفّح كتب التأريخ، يجد أنّه ينقل صوراً بشعة لاساليب التنكيل والقتل التي مارسها الامويّون والعباسيون ضد العلويين بحجة واهية هي الخروج عن الاجماع والجماعة.

على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أوضح بجلاء مفهوم الجماعة الذي لا يعني . بالضرورة . الكثرة، كما يتصوره

السطحيون وكما يُحرّفه السلطويون، بل يعني جماعة أهل الحق وإن قلوا، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من فارق جماعة

(1) كنز العمال 1: 206.

(2) كنز العمال 1: 206 | 1035.

المسلمين فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه قيل: يا رسول الله ما جماعة المسلمين ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: جماعة أهل الحق وإن قلوا» [1].

وعودة إلى أصل المطلب، فقد تبيّن لنا بأنّ العقيدة تدعو الانسان المسلم إلى الانضمام إلى الجماعة، وهنا ثمة تساؤل يفرض نفسه، وهو وجود أحاديث كثيرة في مصادرنا، تدعو الإنسان المسلم إلى إيثار العزلة، وبالتالي الابتعاد عن الناس، يُجيب مؤلف جامع السعادات، الشيخ النراقي عن ذلك بقوله: (نظر الأولون إلى إطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله يحب العبد التقي الخفي»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب».

وقول الإمام الصادق عليه السلام: «فسد الزمان، وتغيّر الاخوان، وصار الانفراد أسكن للفؤاد»، وقوله عليه السلام: «أقلل معارفك، وأنكر من تعرف منهم».

إلى أن قال: فالصحيح أن يقال: إنّ الأفضلية منهما . أي المخالطة والعزلة . تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة، فينبغي أن ينظر إلى كلّ شخص وحاله.. أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة، ولبعضهم المخالطة، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة) [2].

ويمكننا التوفيق بين الطائفتين بالقول: إنّ الاتجاه الداعي إلى العزلة، يمكن حمله على عدّة وجوه، منها: أنّ التوجه للعبادة يتطلب . عادةً .

(1) روضة الواعظين، للفتّال النيسابوري: 334 ـ منشورات الرضي ـ قم.

(2) جامع السعادات، للنراقي 3: 195 . 197 . مطبعة النجف الاشرف 1383 هـ ط3.

الابتعاد عن الناس آناً ما، بغية الانقطاع إلى الله تعالى.

وهذا الأمر . بطبيعة الحال . لا ينطبق على جميع العبادات، فالحج الذي هو عبادة ذات صبغة اجتماعية، يجتمع خلاله الناس من كلّ حدب وصوب في مكان واحد، وزمان محدد، لأداء شعائر واحدة.

من جانب آخر يمكن حمل العزلة على تجنّب مخالطة الأشرار، فقد ورد في وصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «... يا أبا ذر، الجليس الصالح خيرٌ من الوحدة، والوحدة خيرٌ من جليس السوء..» [1].

أما الاختلاط بالأخيار، فهو أمر مرغوب فيه، والإسلام ـ كما أسلفنا ـ يحثُ عليه، وعلى العموم فهناك حالات استثنائية تستدعي العزلة عن الناس، أما القاعدة العامة في الإسلام، فتؤكد على مخالطة الناس، والصبر على أذاهم.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» [2].

والإسلام يبغض العزلة التامة عن الناس مهما كانت مبرراتها، عبادية أو غيرها، فلا رهبانية في الإسلام كما هو معروف، ومن الشواهد النقلية على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد رجلاً، فسأل عنه فجاء، فقال: يا رسول الله إنّي أردتُ أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه فأتعبدّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لصبر أحدكم ساعةٍ على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من

(1) مكارم الاخلاق، للطبرسي: 466 ـ مؤسسة الاعلمي ـ ط6.

(2) كنز العمال 1: 154 | 769.

عبادته خالياً أربعين سنة» [3].

وعلى ضوء ذلك فهناك مواطن تتطلب من الفرد أن ينظم إلى الجماعة وأن ينصهر بها، كمواطن الجهاد، وحضور الجماعة في المساجد، والواسة في مراكز التعليم المختلفة وغيرها.

ثانياً: تغيير نظم الروابط الاجتماعية

كان المجتمع الجاهلي يعتبر رابطة الدم والرحم أساس الروابط الاجتماعية، فيضع مبدأ القرابة فوق مبادىء الحق والعدالة في حال التعارض بينهما، والقرآن الكريم قد ذمَّ هذه الحميَّة الجاهلية صراحة: **(إذ جعلَ الذَّين كفروَا في قلوبهُمُ الحِمية حَميةَ الجَاهلِيةّ..)** [1].

وقد عملت العقيدة على إزالة غيوم العصبية عن القلوب، ولم تقرَّ بالتفاضل بين الناس القائم على القرابة والقومية أو اللوّن والمال والجنس، وبدلاً من ذلك أقامت روابط جديدة على أسس معنوية هي التقوى والفضيلة.

وعليه فالعقيدة تنبذ كل أشكال العصبية، إذ لا يمكن التوفيق بين الإيمان والتعصّب.

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من تعصّب أو تُعصبّ له، فقد خلع ربقة الإيمان من عنُقه» [2].

وقال عليه السلام أيضاً: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل

(1) كنز العمال 4: 454 | 11354.

(2) الفتح 48: 26.

(3) أُصول الكافي 2: 308 | 2 باب العصبية.

[على] عصبيّة، وليس منا من مات على عصبية» [1].

وفي هذا المجال، يُقدم أمير المؤمنين عليه السلام رؤيته العلاجية لمرض العصبية البغيض، ففي خطبته المعروفة بالقاصعة يقول عليه السلام: «ولقد نظرتُ فما وجدت أحداً من العالمين يتعصبّ لشيء من الاشيَاء إلا عّن علة تّحتمل تمويه الجهلاء، أو حجّة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبوّن لامرَ ما يعرُف له سببولا علة، أما إبليس فتعصبّ على آدم لاصلهَ، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا نارِيٌّ وأنت طينيٌّ، وأما الاغَنياء من مترفة الامم فتعصبوا لآثار مواقع النعمّ، فقالوا: **(نحنُ أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين)** فإن كان لا بدَّ من العصبيّة فليكنُ تعصبكم لُمكارم الخصال، ومحامد الافعالَ ومحاسن الامورُ... فتعصّبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذِّمام، والطاَّعة للبرِّ، والمعصية للكبر، والاخذَ بالفضل، والكف عنِّ البغي، والإعظام للقتل، والانِصاف للخلقِ، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد فِي الارضَ» [2].

ضمن هذا السياق قام حفيده علي بن الحسين عليه السلام بإيضاح مفهوم العصبيّة، وما هو المذموم منها، عندما سئُل عنها، فقال عليه السلام: «العصبيّة التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرّجل شوار قومه خيراً مَن خيار قوم آخرين، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلمّ» [3].

(1) سُنن أبي داود 2: 332 | 4 باب في العصبية.

(2) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد 13: 166 . دار احياء التراث العربي ط2.

(3) أُصول الكافي 2: 308 | 7 باب العصبية كتاب الايمان والكفر.

وهكذا نجد أنّ العقيدة قد عملت على قشع غيوم العصبية السوداء من القلوب، وقامت بتشكيل هوية اجتماعية جديدة للناس تقوم على الإيمان بالله ورسوله، وإشاعت مشاعر الحب والرّحمة بدلاً من مشاعر التعصبّ والكراهية، فالعصبية التي تعني: «مناصرة المرء قومه، أو أسرته، أو وطنه، فيما يخالف الشرع، وينافي الحق والعدل. وهي: من أخطر النزعات وأفتكها في تسيّب المسلمين، وتفويق شملهم، وإضعاف طاقاتهم، الروحية والمادية، وقد حاربها الاِسلام، وحذرّ المسلمين من شرورها» [1].

ولعل من أبرز مظاهر التغيير الاجتماعي، الذي صنعته العقيدة أنّ هناك أفراداً كانوا في أسفل السلمَّ الاجتماعي في فترة ما قبل الاِسلام، فإذا هم بعد إشراق شمس الاِسلام، يتصدرون قمة الهرم الاجتماعي، فبلال الحبشي رضي الله عنه يصبح مؤذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسلمان الفارسي رضي الله عنه هو رجل من بلاد فارس، تنقّل من رقّ إلى رقّ، أصبح في عصر الاِسلام صحابياً جليلاً، وحاكماً عاماً على بلاد كبيرة، وفوق كل ذلك غدا من أهل البيت عليهم السلام، سأل رجل علياً عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرني عن سلمان الفارسي قال عليه السلام: «بخٍ بخٍ سلمان منا أهل البيت، ومن لكم بمثل

لقمان الحكيم..» [2].

وكان زيد بن حارثة وابنه أُسامة ممن ينبغي . وفق التقسيم الجاهلي . أن يكونا في طبقة العبيد، فإذا بهما يقودان جيوش المسلمين في اثنتين من أكبر الحملات الإسلامية عدّة وعددا.

(1) أخلاق أهل البيت عليهم السلام، للسيد مهدي الصدر: 70.

(2) الاحتجاج، للطبرسي 1: 260.

ولم يكن من اليسير أن يتم هذا التحوّل الكبير في أفكار الناس وعلاقاتهم، في هذه الفترة القصيرة من عمر الرسالة، لولا الدور التغييري الكبير الذي اضطلعت به العقيدة الإسلامية.

ثالثاً: الحث على التعاون والتعارف

نقلت العقيدة أفراد المجتمع من حالة التنافس والصراع إلى حالة التعارف والتعاون.

والقرآن مصدر العقيدة الأول، يحث الناس على الاجتماع والتعارف، يقول تعالى: **(يا أيُّها النّاسُ إنا خَلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجَعلنكُم شعُوبا وقَبائل لتَعارفوا إن أكرَمكم عِنْد الله أتقكم...)** [1].

كما حثَّ الناس على التعاون: **(وتعاونُوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثمِ والعدوانِ..)** [2].

وقد أثبتت تجارب البشرية أنّ في التعاون قوة، وأنّه يؤدي إلى التقدم، وكان المجتمع الجاهلي متخلفاً، يعيش حالة الصراع بدافع العصبية القبلية، أو طغيان الأهواء والمصالح الشخصية، أو بسبب احتكار البعض لمصادر الكلأ والماء، فانتقل ذلك المجتمع . بفضل الإسلام . إلى مدار جديد بعد أن تكرّست فيه قيم التعاون والتكافل الاجتماعي.

وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . الذي كان مصراً لحضارة، وباعثاً لنهضة . نجد شواهد عديدة على حبه للتعاون والتكافل وحثه المتواصل عليهما، منها: .

(1) الحجرات 49: 13.

(2) المائدة 5: 2.

أنّه أمر أصحابه بذبح شاة في سفر، فقال رجل من القوم: عليَّ ذبحها، وقال الآخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: علي قطعها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليَّ أن ألقط لكم الحطب». فقالوا: يا رسول الله، لا تتعبنَّ بآبائنا وأُمهاتنا . أنت، نحن نكفيك ؟!.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «عرفتُ أنكم تكفوني، ولكن الله عزَّ وجل يكره من عبده إذا كان مع أصحابه أن ينفرد من [1]

بينهم» فقام يلقط الحطب لهم .

وكما كرّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف السابق أن ينفرد الانسان عن سربه الاجتماعي، ويكتفي بموقف المتفرج لا يقوم بشيء من المشاركة معهم، كذلك كرّه أن يصبح الانسان كلاً على جماعته، يعتمد على غيره في عيشه وشؤونه، بدون مبرر معقول: ذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجل.. قالوا: يارسول الله، خرج معنا حاجاً، فإذا نزلنا لم ينزل يهلّل الله حتّى نرتحل، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فمن كان يكفيه علف دابته، ويصنع طعامه ؟ قالوا: كلّنا، قال صلى الله عليه وآله وسلم: كلّكم خير منه» [2] .

وأسهمت مدرسة أهل البيت عليهم السلام في ترسيخ مبدأ التعاون والتكافل في أذهان الناس وسلوكهم، فعلى سبيل الاستشهاد، كان علي بن الحسين عليه السلام إذا جنّه الليل، وهدأت العيون، قام إلى منزله، فجمع ما تبقّى من قوت أهله، وجعله في جراب، ورمى به على عاتقه، وخرج إلى دور الفقراء، وهو متلثم، حتى يفرقه عليهم، وكثيراً ما كانوا قياماً على أبوابهم

---

(1) مكارم الاخلاق، للشيخ الطبرسي: 251 ـ 252، مؤسسة الآعلمي ط6.

(2) بحار الانوار 76: 274 عن كتاب المحاسن.

ينتظرونه، فإذا رأوه تباشروا به، وقالوا جاء صاحب الجراب [1] .

وكان الإمام الكاظم عليه السلام يتفقد فقراء المدينة في الليل، فيحمل إليهم الزنبيل فيه العين والورق والدقة والتمور، فيوصل إليهم ذلك ولا يعلمون من أي جهة هو.. وكان إذا بلغه عن الرجل ما يكره بعث إليه بصرّة دنانير، وكانت صرره مثلاً [2] .

وقد حثَّ الائمة عليهم السلام شيعتهم خاصة على تحقيق درجة أعلى من المشاركة والتعاون فيما بينهم، قد تصل إلى حدود المثالية، فعن سعيد بن الحسن، قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «أيجيء أحدكم الى أخيه فيدخل يده في كيسه، فيأخذ حاجته فلا يدفعه ؟ فقلتُ: ما أعرف ذلك فينا، فقال عليه السلام: فلا شيء إذاً، قلتُ: فالهلاك إذاً، فقال عليه السلام: إن القوم لم يعطوا أحلامهم بعد» [3] .

وكان الإمام الصادق عليه السلام قوياً في مدّ العون إلى الآخرين، فعن الفضل بن قرة، قال كان أبو عبدالله عليه السلام يبسط رداءه وفيه صرر الدنانير، فيقول للرّسول: «إذهب بها إلى فلان وفلان من أهل بيته، وقل لهم: هذه بعث إليكم بها من العراق، قال: فيذهب بها الرّسول إليهم فيقول ما قال، فيقولون: أما أنت فجزاك الله خيراً بصلتك قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما جعفر فحكم الله بيننا وبينه، قال: فيخرُّ أبو عبدالله ساجداً ويقول: اللهّم أذل رقبتي لولد أبي» [4] .

---

(1) في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام، للسيد محسن الآمين 2: 202 دار التعارف.

(2) المصدر السابق 4: 84 . دار صعب.

(3) أُصول الكافي 2: 173 . 174 | 13 باب حق المؤمن على أخيه وأداء حقه.

(4) تنبيه الخواطر، للأمير ورّام 2: 266 . دار صعب.

وقد حدد الإمام الصادق عليه السلام بدقة الملامح العبادية والاجتماعية للشيعة، عندما خاطب أحد أصحابه بقوله: «يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحّبنا أهل البيت، فو الله ما شيعتنا إلاّ من اتقّى الله وأطاعه، ما كانوا يعرُفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والاَمانة وكثرة ذكر الله، والصوم والصلاة، والبر بالوالدين، والتعهد للخوات من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والاَيتام، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الالَسن عن الناس إلا من خير...» [1].

وعن محمد بن عجلان، قال: كنتُ عند أبي عبدالله عليه السلام، فدخل رجل فسلّم، فسأله عليه السلام: «كيف من خلفّت من إخوانك ؟ قال: فأحسن الثّناء وزكّى وأطرى، فقال له: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم ؟ فقال: قليلة، قال عليه السلام: وكيف مشاهدة أغنيائهم لفقرائهم ؟ قال: قليلة، قال: فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم ؟ فقال: إنّك لتذكر أخلاقاً قلّ ما هي فيمن عندنا، قال: فقال عليه السلام: فكيف تزعم هؤلاء أنّهم شيعة ؟!» [2].

وهكذا نجد أنّ مسألة التعاون والتضامن، تتصدر سلمّ الاولَوية في اهتمامات الائمَة عليهم السلام الاجتماعية، لكونها الضمان الوحيد والطريق الاَمثل لاِقامة بناء اجتماعي متماسك تغيب فيه عوامل الصراع والتناحر، وتسود فيه عوامل الودّ والالفَة.

والذي يثير الدهشة ويبعث على الاعجاب أنّ المجتمع العربي الجاهلي الذي كان ممزقاً، ولا تقيم له الامُم وزناً غدا بفضل الرسالة الاِسلامية موحّداً مهاب الجانب، ذا عزة ومنعة، يقول الامام علي عليه السلام:

(1) مجموعة ورّام 2: 185 دار صعب.

(2) أُصول الكافي 2: 173 | 10 كتاب الايمان والكفر.

«..والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالاِسلام، عزيزون بالاجتماع..» [1].

رابعاً: تغيير العادات والتقاليد الجاهلية

كان للعقيدة الاَثر البالغ في تغيير الكثير من العادات والتقاليد، التي تمُتهن فيها كرامة الانِسان، وينتج عنها العنت والمشقة، وقد قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته الاَطهار بدور حضاري هام، في هذا المقام، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوموا كما يقوم الاَعاجم بعضهم لبعض، ولا بأس بأن يتخلل عن مكانه» [2].

وسعى صلى الله عليه وآله وسلم لاِشاعة وترسيخ عادات تربوية جديدة، روي عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «كان

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل مزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل..» وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أتى أحدكم مجلساً فليجلس حيثُ انتهى مجلسه» [3].

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يعمل على تغيير العادات في مختلف مجالات الحياة، في القيام والجلوس، وفي المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك.

ولقد سار الإمام علي عليه السلام وفق السنّة النبوية، فجاهد لتغيير ما بقي من عادات جاهلية، لا تنسجم مع سماحة دين الإسلام، ودعوته إلى نبذ التكلّف والمظاهر الفارغة التي تشق على الناس، وتضع الحواجز المصطنعة التي تحول دون التواصل فيما بينهم، بين العالم والجاهل،

---

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 203 | خطبة 146.

(2) مكارم الاخلاق، للطبرسي: 26.

(3) المصدر السابق.

وبين الغني والفقير، وبين الحاكم والمحكوم، ويكفينا الاستشهاد على ذلك، أنّ الإمام علي عليه السلام، لما لقيه الدهاقون . في الأنبار عند مسيره إلى الشام . فتوجلوا له، واشتتوّا بين يديه، قال عليه السلام: «ما هذا الذي صنعتموه ؟ فقالوا: خلق منا نعظم به أمراءنا، فقال عليه السلام: والله ما ينتفع بهذا أُمراؤكم ! وإنكم لتشقوّن على أنفسكم في دنياكم، وتشقون به في آخرتكم، ومأأخسر المشقّة وراءها العقاب، وأربح الدّعة معها الامَان من النار» [1].

وله عليه السلام توصيات قيّمة تسهم في بناء الإنسان، وتغوص في سلوكه العادات الحسنة، منها قوله عليه السلام: «أيها الناس، تولّوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها» [2].

كل ذلك من أجل إجراء التغيير الاجتماعي المنشود، ولا يخفى بأنّ البناء الاجتماعي بدون إجراء التغيير الداخلي في نفوس وعادات الأفراد، يصبح عبثياً كالبناء بدون قاعدة قال تعالى: **(إنَّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم)** [3].

يقول العلاّمة السيد الشهيد محمدباقر الصدر قدس سره: «إنّ الدافع الذاتي هو مثار المشكلة الاجتماعية، وأنّ هذا الدافع أصيل في الإنسان، لانّه ينبع من حبه لذاته، وهنا يجيء دور الدين، بوضع الحل الوحيد للمشكلة، فالحل يتوقف على التوفيق بين الدوافع الذاتية والمصالح الاجتماعية العامة» [4].

---

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 475 | حكم 37.

(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 538 | حكم 359.

(3) الرعد 13: 11.

(4) اقتصادنا، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر: 324 ط11 . دار التعارف للمطبوعات.

الفصل الثالث

البناء النفسي

إنَّ لكلِّ عقيدة أثرا في نفس صاحبها، يدفعه إلى نوع من الاعمال والتصرفات، ولقد كانت لعقيدة الايمان بالله في المسلمين آثار في النفس عميقة، كان لها نتائجها العملية في الحياة العامة، يمكن الإشارة إليها . إجمالاً . في النقاط التالية: .

أولاً: طمأنينة النفس

إنّ الانسان المتدين يجد في العقيدة اطمئنانا على الرغم من عواصف الاحداث من حوله، فهي تدفع عنه القلق والتوتر، وتخلق له أجواء نفسية مفعمة بالطمأنينة والأمل، حتى ولو كان يعيش في بيئة غير مستقرة أو خطرة.

وتاريخ الإسلام يحدثنا بما لا يحصى من مصاديق ذلك، فعلى الرغم من ان المسلمين الاوائل كانوا يعيشون ظروفا صعبة، حيثُ الحروب المتوالية التي أثارتها قريش وحلفاؤها، وما صاحبها من مقاطعة اقتصادية وعزلة اجتماعية وضغوط نفسية، إلاّ أنّهم كانوا يتمتعون بمعنوية عالية، ويندفعون للقتال بنفس مطمئنة إلى ثواب الله ورحمته.

عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم بدر: «قوموا إلى جنّة عرضها السمّوات والارض، فقال عمير بن الحمام الانصاري: يا رسول الله، جنّة

عرضها السّموات والارض ؟! قال: نعم، قال: بخ بخ ! لا والله يا رسول الله، لا بدّ أن أكون من أهلها، قال: فإنكّ من أهلها»، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنهّا حياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتل حتى قتل [1] .

فالبيئة التي يتواجد فيها هذا المجاهد كانت خطرة، فهو يعيش أجواء حرب بدر، ولكن بيئته النفسية كانت سعيدة، حيثُ يأمل العيش في جنّة عرضها السموات والارض فالمسلم بفضل عقيدة الايمان بالله تعالى يشعر بالرضا والاطمئنان بما يقع في محيطه من أحداث، ويوطّن نفسه على قضاء الله وقدره، فالمصيبة التي تصيبه في حاضره، قد تتحول إلى بركة، والقرآن الكريم يُنمّي هذا الاحساس في نفس المؤمن قال تعالى: **(..وعسى أن تكرهُوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوُا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)** [2] .

وأحاديث أهل البيت عليهم السلام تعمّق هذا الشعور في نفوس المسلمين، فقد بعث أمير المؤمنين عليه السلام كتاباً إلى ابن عباس، وكان ابن عباس يقول: ماانتفعت بكلام بعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانتفاعي بهذا الكلام: «أمّا بعد ، فإنّ المرء قد يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك

[3]

على ما فاتك منها» .

(1)السيرة النبوية، لابي الفداء 2: 420 ـ دار الرائد العربي ط3.

(2) البقرة 2: 216.

(3) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 378 . كتاب 22.

صحيح أنّ الإنسان العادي بطبعه يمتلكه اليأس والقنوط عند المصائب، كما أشار القرآن صراحة لذلك بقوله: **(...وإن مسَّهُ الشرُّ فيئوسٌ قنوطٌ)** [1] .. **(ولئن أذقنا الإنسانَ منا رَحمة ثمَّ نزَعناها منه إنهُ ليئَوسٌ كفورٌ)** [2] ، ولكن الإنسان المؤمن المتسلح بالعقيدة وقور عند الشدائد، صبور عند الزلزل، لا يتسرب الشك إلى نفسه: **(.. لا ييئسُ من روَحِ الله إلا القَومُ الكافِرُون)** [3] .

يصف مولى الموحدين عليه السلام أولياء الله فيقول: «..وإن صُبّت عليهم المصائب لجؤوا إلى الاستجارة بك، علما بأن أزمّة الأمُور بيدك، ومصادرها عن قضائك» [4] .

والملاحظ أنّه في الوقت الذي يركّز فيه أمير المؤمنين عليه السلام في توصياته على عدم اليأس من روَح الله، فإنه يؤكد في تعاليمه التربوية العالية على اليأس عما في أيدي الناس، لكي يكون الإنسان متكلاً على ربهِّ،ولايكون كلا عًّلى غيره، يقول عليه السلام: «الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس» [5] .

أساليب العقيدة في مواجهة المصائب

ضمن هذا السياق، تخفف العقيدة في نفوس معتنقيها من الضغوط

(1) فصلت 41: 49.

(2) هود 11: 9.

(3) يوسف 12: 87.

(4) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 349.

(5) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 534.

والأزمات النفسية التي يتعرضون لها، فتصبح ضعيفة الاثر والاهمية، ضمن أساليب عديدة، منها:

أ . بيان طبيعة الحياة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان: وهذه المعرفة سوف تظهر بصماتها واضحة في وعيه وسلوكه، فالعقيدة من خلال مصادرها المعرفية تبين طبيعة الدنيا وتدعوا إلى الزهد فيها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «أيُّها الناس، انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها، فإنهَّا عما قليل تزيل

الثوي الساكن، وتفجعُ المترف الآمن.. سرورها مشوب بالحزن..»[1].

وقال أيضاً: «...وأُحذركم الدنيا، فإنهّا دار ُشخوص، ومحلة تَّنغُيص، ساكنها ضاعن، وقاطنها بائن، تميد بأهُلها ميدانَ السفينة..»[2].

وكان من الطبيعي والحال هذه أن تحذّر العقيدة من التعلق بأسباب الدنيا الفانية الذي ينتج آثاراً سلبية تنعكس على نفس المسلم، فعن علقمة، عن عبدالله، قال: نام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلُنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لي وللدنُّيا، ما أنا في الدنيا إلا كّواكب استظل تحت شجرة ثمَّراحَ وتركها»[3].

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «وأُحذركمُ الدنيا فإنهاّ متوّل قلُعةُ، وليست بدار نجعةُ، قد تزينت بّغرورهاُ، وغرت بزينتها، دارُها هانت على ربهِّا، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها وحياتها بموتها، وحلوها

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 148 خطبة | 103.

(2) نهج البلاغة: 310.

(3) سُنن الترمذي 4: 508 | 2377 باب 44 . دار الفكر ط 1408 هـ.

بؤسُها لم يصُفها الله تعالى لاولَيائه، ولم يضن بهَّا على أعدائه، خيرهاُزهيد وشرها ُعتيد. وجمعها ينفد، وملُكها يُسلب، وعامرُها يخربُ. فما خيرُ دار تنقض ُنقض البناء، وعمرُ يفنى فيها فناء الزاد، وَّمدة تنقطَّع انقطاعُ السير..»[1].

يقول الشيخ الديلمي: ما عبر أحد عن الدنيا كما عبر أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «دارٌ بالبلاءِ محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا تسلم نزالها، أحوالها مختلفة، وتارات متصرفة، والعيش فيها مذموم، والأَمان فيها معدوم، وإنمّا أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها...»[2].

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الادراك العميق للدنيا إلى حذر شديد منها، ويكفينا الاستدلال على ذلك: سأل معاوية ضرار بن ضمرة الشيباني عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: أشهد لقدرأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا ! يا دنيا !! إليك عني، أبيَّ تعرّضتِ ؟! أم إليَّ تشوقتِ ؟! لا حان حينك، هيهات غريّ غيري، لاحاجة لي فيك، قد طلقتكّ ثلاثا، لارجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلّة الزاّد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد»[3].

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 167 | خطبة 113.

(2) إرشاد القلوب، للديلمي 1: 30 . منشورات الرضي . قم.

(3) تنبيه الخواطر، الأمير ورام 1: 79 | باب العتاب.

ومن جملة تلك الشواهد، نجد أنّ العقيدة تكشف طبيعة الدنيا وعاقبة من ينخدع بها أو يركن اليها، وتبين قصور رؤية من ينشد الراحة التامة فيها، عن الصادق عليه السلام أنّه قال لاَصحابه: «لا تتمنوّا المستحيل، قالوا: ومن يتمنى المستحيل ؟! فقال عليه السلام: أنتم، ألستم تمنّون الراحة في الدنّيا ؟ قالوا: بلى، فقال عليه السلام: الراحّة للمؤمن في الدنيا مستحيلة» [1].

ب . إنّ المصائب تستتبع أجراً وثواباً: الامرَ الذي يخفف من وقع المصائب على الانسِان، فيواجهها بقلب صامد، ونفس مطمئنة إلى ثواب الله ورحمته، فلا تترك في نفسه أثراً أكثر مما تتركه فقاعة على سطح الماء.

يقول الرسول الاَكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «المصائب مفاتيح الاَجر» [2].

وكتب رجلٌ إلى أبي جعفر عليه السلام يشكو إليه مصابه بولده، فكتب إليه عليه السلام: «أما علمت أنّ الله يختار من مال المؤمن ومن ولده ونفسه ليأجره على ذلك» [3].

جـ . إلفات نظر المسلم إلى المصيبة العظمى: وهي مصيبته في دينه، مما يهوّن ويصغرّ في نفسه المصائب الدنيوية الصغرة، وهي حالة امتصاص بارعة للضغوط النفسية تقوم بها العقيدة، ويحتل هذا التوجه مركز الصدارة في سورة أهل البيت التربوية، روي أنّه رأى الصادق عليه السلام رجلاً قد اشتدّ جزعه على ولده، فقال عليه السلام: «يا هذا جزعت للمصيبة الصغرى، وغفلت عن المصيبة الكبرى، لو كنت لما صار إليه ولدك مستعدّاً

(1) أعلام الدين، للديلمي: 278.

(2) بحار الاَنوار 82: 122 . عن مسكن الفؤاد.

(3) بحار الانوار 82: 123 . عن مشكاة الانوار: 280.

لما اشتد عليه جزعك، فمصابك بتركك الاستعداد له، أعظم من مصابك بولدك» [1].

وكان أبو عبدالله عليه السلام يقول عند المصيبة: «الحمدُ لله الذي لم يجعل مصيبتي في ديني، والحمدُ لله الذي لو شاء أن يجعل مصيبتي أعظم ممّا كانت، والحمدُ لله على الامرَ الذي شاء أن يكون فكان» [2].

من جميع ما تقدم، نخلص إلى أنّ العقيدة تصوغ نفوساً قوية مطمئنة، تواجه عواصف الاحَداث بقلب صامد ومطمئن إلى قضاء الله وقدره، وترسم العقيدة للاِنسان خطّ سيره التكاملي، وعليه فالانسِان بلا عقيدة كالسفينة بلا بوصلة، سرعان ما تصطدم بصخور الشاطىء فتتحطم.

ثانياً: تحرير النفس من المخاوف

مما لا شكَّ فيه، أنّ الخوف يبدد نشاط الفرد، ويشُل طاقته الفكرية والجسمية، وكان الانسِان الجاهلي في خوف دائم من أخيه الاِنسان ودسائسه، ومن الطبيعة المحيطة به وكوارثها، ومن الموت الذي لا سبيل له إلى دفعه، ومن الفقر والجدب، ومن

المرض وما يرافقه من آلام، وتخفف العقيدة من وطأة الاحساس بتلك المخاوف التي تشلُّ طاقة الإنسان عن الحركة والانتاج، وتجعله غرضاً للهموم والهواجس.

الموت تحفة !

ينبّه القرآن الكريم إلى حقيقة أزلية، على الإنسان أن يوطنّ نفسه

(1) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري: 489 ـ منشورات الرضي ـ قم.

(2) الكافي، للكليني 3: 262 | 42 باب النوادر.

عليها، وهي: **(كلُّ نفسٍ ذائقة ُالموت)** [1].

وعليه فلا بدَّ مما ليس منه بد، والموت لا بدَّ أن يدرك الحي يوما ًما، كما أدرك منَ قبله، وهو شيء لا عاصم منه.. قال تعالى: **(أينما تكُونوا يدُرككمُ الموت وُلو كنتمُ فُي بروجُ مشيدة..)** [2]. وقال: **(قُلْ لنَّ ينفعكمُ الفرار إن فررتم مُن الموت..)** [3].

فالقرآن ـ إذن ـ يؤكد أنّ الموت لا بدَّ منه، ثم أنهّ أمر ٌمنوط بإذن الله تعالى وليس بيد غيره، وهذه حقيقة لها انعكاسات إيحائية على نفس الإنسان، بأنَّ أي قوة أرضية أو سماوية لا تستطيع ـ مهما أوُتيت من قوة ـ أن تسلب الحياة عن الانسِان قال تعالى: **(ما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بًإذن الله كِتابا مؤجُلا..ً)** [4].

ولقد بيّن القرآن الكريم زيفَ مزاعم اليهود الذين كانوا مع حرصهم الشديد على الحياة يتصورون أنهم أولياء الله دون غيرهم، فكشف عن زيف مزاعمهم بهذا التحدّي الذي يخاطب دفائن النفوس، ذلك أنَّ المؤمن بالله حقا ًلا يخشى الموت إذا حل ّ بساحته، فالموت هو انتقال من دار فانية إلى دار باقية، واليهود بما يمتازون به من نزعة مادية طاغية، يخشون الموت ويتشبثون بالحياة، ومن هنا واجههم القرآن الكريم بهذا التحدي البليغ قال تعالى: **(قُل يأيُّها الذيَّن هادوا ُإن زعمتم أنكم ّأوُلياء ُ للهِ**

(1) آل عمران 3: 185.

(2) النساء 4: 78.

(3) الأحزاب 33: 16.

(4) آل عمران 3: 145.

من دُونِ الناّس فِتمنوَا ألَموت إنَ كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبدا بما قدّمت أيَّديهم والله عليم بالظالمين) [1].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «... فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبّه» [2]. والمثير في الأمر أنّ

العقيدة في الوقت الذي تخفف من خوف الإنسان من الموت، تصوّر الموت للمؤمن كأنه تحفة ! ينبغي الاقدام عليه، وفي ذلك يقول الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «تحفة المؤمن الموت» وانّما قال هذا لانَ الدنيا سجن المؤمن، إذ لا زال فيها في عناء من رياضة نفسه ومقاساة شهواته ومدافعة الشيطان، فالموت إطلاق له من العذاب، والإطلاق تحفة في حقّه لما يصل إليه من النعيم الدائم [3].

وقال الإمام أبو عبدالله الحسين عليه السلام لاصحابه يوم عاشوراء: «صبرا يا كرام ! فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر ؟..» [4].

من جانب آخر، تدعو مدرسة آل البيت عليهم السلام إلى ضرورة معرفة الموت، فإنّ معرفة الشيء قد تبدّد المخاوف منه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا هبت أمراً فقع فيه، فإنّ شدةً توقيهّ أعظم مما تخاف منه» [5]، وقد روي عن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام أنّه قال لمريض من أصحابه، عندما دخل عليه فوجده يبكي جزعاً من الموت: «يا عبد الله، تخاف من

---

(1) الجمعة 62: 6 ـ 7.

(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 81 | خطبة 38.

(3) تنبيه الخواطر، الأمير ورام 1 ـ 2: 268 باب ذكر الموت.

(4) معاني الاخبار، للصدوق: 288 . منشورات جماعة المدرسين . ط 1379 هـ.

(5) نهج البلاغة: قصار الحكم | 175.

الموت لانّك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتسخت وتقزّرت، وتأذيتّ من كثرة القذر والوسخ عليك، وأصابك قروح وجوب، وعلمت أنّ الغسل في حمام يزيل ذلك كلّه، أما تريد أن تدخله، فتغسل ذلك عنك أو تكره أن تدخله فيبقى ذلك عليك ؟ قال: بلى يا ابن رسول الله، قال عليه السلام: فذاك الموت هو ذلك الحمام، وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك، وتنقيتك من سيئاتك، فإذا أنت وردت عليه وجاوزته، فقد نجوت من كلّ غمٍّ وهمٍّ وأذى، ووصلت إلى كل سّرور وفرح»، فسكن الرجل واستسلم ونشط، وغمض عين نفسه، ومضى لسبيله [1].

ضمن هذا الاطار، قيل للإمام الصادق عليه السلام: صف لنا الموت، قال عليه السلام: «للمؤمن كأطيب ريح يشمّه، فينعس لطيبه، وينقطع التّعب والالَم كلهّ عنه، وللكافر كلسع الافاعي ولدغ العقارب أو أشد..» [2].

هكذا تقدم العقيدة إشعاعاً من الامَن يخفف من وطأة الموت، فإنهّ للمؤمن تحفة وراحة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «شيئان يكرههما ابن آدم: يكره الموت فالموت راحة للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب» [3].

والائمة عليهم السلام يؤكدون على الاكثار من ذكر الموت، لما فيه من آثار تربوية قيمّة، فهو يميت الشهوات في النفس، ويهوّن مصائب الدنيا التي تعصف بالانِسان مثل ريح السموم، يقول الرسول الاكرَم صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا

(1) معاني الاخبار، للصدوق: 290.

(2) عيون أخبار الرضا، لابن بابويه 2: 248 . مؤسسة الاعلمي ط 1.

(3) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري: 486 في ذكر الموت.

من ذكر الموت فإنّه يمحّص الذنوب، وزهدّ في الدنيا» [1].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «أكثروا ذكر الموت، ويوم خروجكم من القبور ، وقيامكم بين يدي الله عزَّ وجل تهون عليكم المصائب» [2].

ومن وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن عليهما السلام: «يا بُنيَّ أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجمُ عُليه، وتفضُي بعد الموت إليه، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك،ولا يأتيك بغتة فيبهرك» [3]. وقال عليه السلام أيضاً: «من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير» [4].

ونعود لنقول إنّ العقيدة تحرر النفوس من شبح الخوف من الموت من خلال التأكيد على أنّه حقيقة لا بد مّنها، يجب التسليم بها، والتسالم معها عبر معرفة حقيقة الموت، وأنّه للمؤمن راحة، وبدلاً من نسيانه أو تناسيه، يجب أن نديم ذكره لما في ذلك من معطيات إيجابية قد أشرنا إليها فيما سبق.

الرّزق مضمون لطالبه:

هناك خوف ينتاب الإنسان، وينغّص عليه حياته، وهو الخوف من الفقر، لكن العقيدة تبدد هذا الخوف من خلال التأكيد على حقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار، وهي أنّ مقادير الرزق بيد الله تعالى، وقد ضمنها لعباده، وعليه فلا مبرّر لهذه المخاوف، ومن يقرأ القرآن يجد آيات كثيرة، تحثّ على إزالة أسباب الخوف من الفقر التي أدّت بالجاهلي

(1) تنبيه الخواطر 1: 269.

(2) الخصال، للصدوق 2: 616 حديث الاربعمائة.

(3) نهج البلاغة: 400 كتاب 31.

(4) روضة الواعظين: 490.

إلى قتل أبنائه قال تعالى: **(إنَّ اللهَ هوَ الرزاقُ ذوُ القوة المتين)** [1]. وقال تعالى: **(ولا تقتُلوُا أولادكمُ خشيَة إملاق نحنِ نرزُقهُمُ وإياكم)** [2].

وجاءت أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته الأطهار عليهم السلام على هذا المنوال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أبواب الجنة مفتَّحة على الفقراء والمساكين، والرحمة نازلة على الرحماء، والله راضٍ عن [3]

الأَسخياء» .

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «.. عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم..» [4].

من جهة أُخرى، قاموا بتصحيح مفهوم الناس عن الرزق، صحيح أن الله تعالى قد ضمن أرزاق عباده، ولكن لا يعني ذلك أنّه يشجعهم على التواكل والكسل، والقعود والابتعاد عن العمل، وإنّما ربط تعالى تحصيل الرزق بشوط السعي والطلب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اطلبوا الرّزق فإنّه مضمون لطالبه» [5].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بالمرّ . أي المسحاة . ويستخرج الأَرضين، وأنهّ أعتق ألف مملوك من كد يِّده [6].

وكان عليه السلام يسقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى كلّت يده،

---

(1) الذاريات 51: 58.

(2) الإسراء 17: 31.

(3) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري 2: 454.

(4) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 124 | خطبة 91.

(5) الارشاد، للشيخ المفيد: 160 . منشورات مكتبة بصيرتي . قم.

(6) الكافي 5: 74 | 2.

ويتصدّق بالأَجر، ويشد على بطنه حجرا [1].

فلم يكن من عمله الشاق هذا، حريصاً على جمع المال لذاته، فالإمام علي عليه السلام لا تغرّه بيضاء ولا صفراء، بل كان يطلب الرّزق الحلال من حِلِّه وينفقه في محله.

«ولما كانت النفوس مشغوفة بالمال، مولعة بجمعه واكتنازه، فحريٌّ بالمؤمن الواعي المستنير، أن لا ينخدع بريقه، ويغتر بمفاتنه، وأن يتعظ بحرمان المغرورين به، والحريصين عليه، من كسب المثوبة في الآخرة، وإفلاسهم ممازاد عن حاجاتهم وكفافهم في الدنيا، فإنّهم خزّان أمناء، يكدحون ويشقون في ادخّاره ثم يخلفوّنه طعمة سائغة للوارثين، فيكون عليهم الوزر ولأَبنائهم المهنى والاغتباط» [2].

هكذا تستأصل العقيدة من النفوس جذور الخوف من الفقر، وتجعله يسعى بكلِّ اطمئنان لضمان متطلبات عيشه الكريم.

المرض يمحو الذنب.. ويستدعي الثواب !

من جانب آخر لطّفت العقيدة من مخاوف الإنسان الدائمة من المرض من خلال التأكيد على حقيقة بديهية، هي إن كل جسم معرّض للسقم، يقول الإمام علي عليه السلام: «لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى. بينما تراه مُعافى إذ سقم، وبينما تراهُ غنياً إذ افتقر» [3].

(1) شرح النهج 1: 7.

(2) أخلاق أهل البيت، للسيد مهدي الصدر: 143 . دار الكتاب الاسلامي.

(3) نهج البلاغة: 551 حكم 426.

كما أكدت على أنّ المرض يسقط الذنب، يقول الاِمام السجاد عليه السلام: «إنّ المؤمن إذا حم حمّى واحدة، تناثرت الذنوبُ منه كورق الشجر..»[1] . وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «صداع ليلة يحطُّ كلُّ خطيئة إلا الكبائر»[2].

وإضافة لذلك فإنّ فيه الثواب الجزيل ما يخفّف من وطأته على النفوس، يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «عجبتُ من المؤمن وجزعه من السقم، ولو يعلم ماله في السُقم من الثواب، لاَحبّ أن لا يزال سقيما حتى يلقى ربه عز وجّل»[3] .

ويحدّد الاِمام الرضا عليه السلام فلسفة المرض بقوله: «المرض للمؤمن تطهير ورحمة، وللكافر تعذيب ولعنة، وانّ المرض لا يزال بالمؤمن حتى لا يكون عليه ذنب»[4] .

ونعود لنقول بأنَّ الله لم يجعل المرض عبثاً، بل جعله وسيلة لامتحان الانسان ومعرفة صبره على الزلل، لذلك امتحن به أنبياءه والصالحين من عباده، فأيوب عليه السلام . كما هو معروف . كان ابتلاؤه في جسده: (ولم يبقَ منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عزَّ وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر لله في ليله ونهاره وصباحه ومسائه، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الاَنيس، وأُخرج من بلده، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته التي كانت ترعى له حقه

(1) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، للشيخ الصدوق: 228 ـ مكتبة الصدوق ـ طهران.

(2) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، للشيخ الصدوق: 230.

(3) كتاب التوحيد، للصدوق: 400 . مؤسسة النشر الاِسلامي . قم.

(4) ثواب الاعمال وعقاب الاعمال، للصدوق: 229 باب ثواب المرض.

وتعرف قديم إحسانه إليها.. ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلاّ صبراً واحتسابا وحمدا وشكرا، حتى إن المثل ليضرب بصبره)[1] . فكان نتيجة هذا الصبر والاحتساب أن ردَّ الله تعالى إليه كلّ ما أخذ منه كرما واحسانا.

والعقيدة في الوقت الذي تأمر المسلم بالتزام الصبر، تنصحه بعدم الشكوى من المرض، فالشكوى تعني ضمن ما تعنيه، اتّهام الله تعالى في قضائه، كما أنّها تحطّ من قدر الانسان في نظر الناس، وتبعث على الشماتة به أو التهكم عليه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظّمه في عيني صغر الدنيا في عينه.. وكان لا يشكو وجعا إلا عند بُرئه..»[2] .

ولا بدَّ من الاِشارة إلى أنّ العقيدة في الوقت الذي تبدد غيوم المخاوف في نفس الانسان، تنمي فيه شعور الخوف من الله

تعالى وحده باعتباره السبيل للتحرّز من جميع المخاوف، وتحذّر من عصيانه، وتلوّح بشدة انتقامه، والقرآن الكريم في آيات كثيرة يعمّق من شعور النفس بالخوف من الله تعالى، منها: (قُل إنّي أخافُ إن عصيتُ ربّي عذاب يومَ عظيم) [3]. وقال تعالى: (وأمّا من خافَ مقامَ ربهِّ ونهى النفسَّ عَن الهوى * فإن الجنّةَ هيَّ المأوى) [4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما سلط الله على ابن آدم إلاّ من خافه ابن آدم،

---

(1) البداية والنهاية، لابن الأثيرالدمشقي 1: 254 | 1 ـ دار احياء التراث العربي 1408 ط 1.

(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 526.

(3) الانعام 6: 15.

(4) النازعات 79: 40 . 41.

ولو أنّ ابن آدم لم يخف إلاّ الله ما سلطّ الله عليه غيره..» [1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «طوبى لمن شغله خوف الله عن خوف الناس» [2].

وبطبيعة الحال إنّ لهذا النوع من الخوف آثاراً تربوية مهمة تعود لصالح الفرد، وفي هذا الصدد، يقول الامام الصادق عليه السلام: «من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا» [3].

وتترتب عليه آثار اجتماعية أيضاً حيثُ إنهّ يدفع الفرد إلى مد يدِّ العون إلى الآخرين، قال تعالى: (ويُطعمونَ الطعامَ على حُبهّ مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنّما نطعمكمُ لوجهُ الله لا نريد منكمُ جزآءولا شكورًا * إناُ نخافُ منّ ربنا يومًا عبوساً قمطريراً) [4].

وصفوة القول، لقد غيرت العقيدة النفوس، وفتحت لها آفاقاً واسعة بتحريرها من مخاوفها، كما أوصلت حبلها بخالقها، وأشعرتها بنعمائه، وخوفتها من أليم عقابه.

ثالثاً: معرفة النفس

من معطيات العقيدة، أنها تدفع الإنسان المسلم إلى معرفة نفسه، فلايمكن السمو بالنفس دون معرفة طبيعتها، وهذه المعرفة هي خطوة أولية للسيطرة عليها وكبح جماحها، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «.. لا معرفة

---

(1) كنز العمال 3: 148 | 5909.

(2) تحف العقول، لابن شعبة الحرّاني: 28 . مؤسسة الاعلمي ط5.

(3) أصول الكافي 2: 68 | 4 باب الخوف والرجاء.

(4) الإنسان 76: 8 . 10.

كمعرفتك بنفسك..»[1].

ثم إنَّ هناك علاقة ترابطية وثيقة بين معرفة الله ومعرفة النفس، فمن خلال معرفة الانِسان لنفسه وطبيعتها وقواها، يستطيع التعرف على خالقها ويُقدّر عظمته، ففي الحديث الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وبالمقابل فإنّ نسيان الله تعالى يؤول إلى نسيان النفس: (ولا تكُونوا كالذَّين نسوا الله فأنساهم أنفسهمُ..)[2].

دور العقيدة في تعريف الإنسان بنفسه

مما لا شكّ فيه أنّ العقيدة ـ عبر مصادرها المعرفية ورموزها ـ قامت بدور كبير في الكشف عن طبيعة النفس، وشخّصت بدّقة متناهية أمراضها والآثار الناجمة عنها.

فالقرآن الكريم يقرُّ صراحة بأنّ النفس أمارة بالسوء: (وما أُبرّئ نفسي إن النفس لامارةٌ بالسّوء إلّا ما رحِمَ ربي..)[3].

كما يقرُّ القرآن أيضاً، بأنّ النفس شحيحة قال تعالى: (..وأُحضرتِ الانفسُ الشحَّ..)[4]، وقال: (.. من يُوقَ شحَّ نفسه فأُولئكَ همُ المفلحُونَ)[5].

وهناك طائفة من الأحاديث تسلط الضوء على طبيعة النفس، وتقدّم

---

(1) تحف العقول: 208 من وصية الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي.

(2) الحشر 59: 19.

(3) يوسف 12: 53.

(4) النساء 4: 128.

(5) الحشر 59: 9.

الرؤية العلاجية لأمراضها، منها: ما كتبه الإمام علي عليه السلام إلى الاشتر النخعي لما ولاه مصر، وجاء فيه: «..وأمره أن يكسر نفسهُ من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإنَّ النفس أمارة بالسوءِ، إلا ما رحم الله..»[1].

ومن خطبة له عليه السلام ضمّنها مواعظ للناس، جاء فيها: «.. نستعينه من هذه النفوس البطاء عما أمرت به، السراع إلى ما نُهيت عنه..»[2].

ويقول عليه السلام أيضاً: «النفس مجبولة على سوء الادب، والعبد مأمور بملازمة حسن الادب، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبدُ يجهد بردّها عن سوء المطالبة، فمتى أطلق عنانها فهو شريك في فسادها، ومن أعان نفسه في هوى نفسه فقد أشرك نفسه في قتل نفسه»[3].

على هذا الصعيد لا بدَّ من الاشارة إلى أنّ الامراض النفسية إذا لم تعالج، فإنها قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، فعلى سبيل

الاستشهاد نجد أنّ الفتنة الكبرى التي حصلت للمسلمين في السقيفة، عندما أُقصيت القيادة الشرعية عن مركز القرار، كانت جذورها نفسية، ويكفينا الاستدلال على ذلك بكلام أمير المؤمنين عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقُّ به ؟ فقال عليه السلام: «... أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلَون نسباً، والأشدَون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوطاً، فإنها كانت أثرَة شحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكمَ الله»[4].

(1) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 427 كتاب 53.

(2) نهج البلاغة: 169 | خطبة 114.

(3) ميزان الحكمة 1: 16 عن مشكاة الأنوار.

(4) نهج البلاغة: 231.

فالشحُّ الكامن في نفوس البعض كان السبب الأساس في أول وأعظم انحراف شهدته المسيرة الإسلامية بعد ساعات قليلة من رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك كان أئمة أهل البيت عليهم السلام مع عصمتهم المحققة، يلجؤون إلى الله تعالى بالدعاء لكي يقيهم هذا المرض النفسي الخطير، فعن الفضل بن أبي قرة قال: رأيت أبا عبدالله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: «اللهمَّ قني شحَّ نفسي، فقلتُ: جعلت فُداك ماسمعتك تدعو بغير هذا الدعاء ؟ قال عليه السلام: وأي شيءٍ أشدُّ من شحِّ النفس، إن الله يقول: **(ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك همَ المُفلحونَ)**»[1].

رابعاً: السيطرة على النفس

منهج العقيدة في تربية النَّفس، أنّها تدعو إلى عدم كبت رغباتها لانَ الكبت يقتل حُيويتها، ويبددُ طاقتها، فلا تعمل ولا تنتج، وفي الوقت ذاته لا تشجع العقيدة على إطلاق رغباتها بلا ضوابط، بل تحثُّ على اتبّاع سياسة حكيمة معها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «سياسة النفس أفضل سياسة»[2].

وعملية السيطرة على النفس تتحقق من خلال ضبط رغباتها وتوجيه نزواتها نحو الاعتدال، وتتحقق أيضاً من خلال محاسبتها، قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «ليس منِاَّ من لم يحاسب نفسه في كل يوِّم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله تعالى منها وتاب إليه»[3].

(1) ميزان الحكمة 5: 33 عن نور الثقلين 5: 291.

(2) ميزان الحكمة 10: 134 عن غرر الحكم.

(3) أخلاق أهل البيت، للسيد مهدي الصدر: 351. والحديث في الوافي 3: 62 عن الكافي.

ولا بدَّ من الاشارة إلى أنّ العقيدة لا تحبذ اتباّع الوسائل الملتوية من أجل السيطرة على النفس، فعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء، وكان يقول لنفسه: ذوقي، وعذاب جهنّم أشد حراً، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟!

قال: فبينا هو كذلك إذ أبصره النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في ظل شجرة فأتاه، فقال: غلبتني نفسي، فقال له النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعته؟» [1].

من هذا التوجه النبوي، نجد أنّه في الوقت الذي تشجّع فيه العقيدة كل محاولة صادقة من الانسان للسيطرة على نفسه، نجد أيضاً أنها لا تحُبذ اتباّع الاساليب غير العقلانية للسيطرة على النفس، فالنفس تحتاج إلى صبر وسياسة طويلة ورياضة خاصة لتقلع عن عاداتها، كتلك الرياضة التي أقسم أمير المؤمنين عليه السلام على اتّباعها مع نفسه: «... وأيم الله . يميناً أستثني فيها بمشيئة الله . لأروضنَّ نفسي رياضة تهَش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما...» [2].

وإنّ الانسان ليقف مبهورا أمام قوة الامام عليه السلام في السيطرة على نفسه، رغم أن الاموال كانت تجبى إليه من مختلف بلدان الخلافة الإسلامية أيام خلافته، ولقد أبرَّ بقسمه الذي قطعه على نفسه، عن حبة العرني قال: أتُي أمير المؤمنين عليه السلام بخوان فالوذج فوضع بين يديه ونظر إلى صفائه وحسنه فوجى باصبعه فيه حتى بلغ أسفله ثمَّ سلّها ولم يأخذ منه شيئاً، وتلمّظ اصبعه وقال: «إنَّ الحلال طيبّ، وما هو بحرام، ولكنيّ أكره أن أعود

---

(1) المحجة البيضاء، للمحقق الكاشاني 8: 68 ـ مؤسسة الاعلمي ط2.

(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 419.

نفسي ما لم أعوّدها، لرفعوه عنيّ» فرفعوه [1].

وكان عليه السلام يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه، فقيل له في ذلك، فقال عليه السلام: «أخافُ هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئاً من زيت أو سمن» [2].

الخوف والرجاء:

مما يمكن التأكيد عليه أنّ في النفس خطان متقابلان هما الخوف والرجاء، والعقيدة تعمد إلى كلا الخطين، فتبدد عن النفس كل خوف باطل وكل رجاء منحرف، وبدلاً من ذلك تنُميّ الخوف من الله من جانب، ورجاء ثوابه من جانب آخر قال تعالى: **(... يحذرُ الآخرةَ ويرجوُ رحمة ربه...)** [3]، فليست نظرتها أحادية الجانب كأن تركز على جانب الخوف فتؤيس الإنسان من رحمة الله، أو تركز . بالمقابل . على الرجاء فتضعف في نفسه الخشية من الله.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لو تعلمون قدر رحمة الله لاتكّلتم عليها وما عملتم إلا قليلا، ولو تعلمون قدر غضب الله لظننتم بأن لا تنجوا» [4].

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «إنّ استطعتم أن يشتد خوفكم من الله وأن يحسن ظنكمّ به، فاجمعوا بينهما، فإن العبد إنّما يكون حسن ظنهّ بربهّ على قدر خوفه من ربهّ، وان أحسن الناس ظنا بالله أشدهم خوفا لله» [5].

(1) وسائل الشيعة 16: 508 ـ دار احياء التراث العربي.

(2) وسائل الشيعة 16: 509.

(3) الزمر 39: 9.

(4) كنز العمال 3: 144 | 5894.

(5) نهج البلاغة: 384.

وتجدر الاشارة إلى أنّ الناس «يختلفون في طباعهم وسلوكهم اختلافاً كبيراً، فمن الحكمة في إرشادهم وتوجيههم، رعاية ما هو الأجدر بإصلاحهم من التوجّي والتخويف فمنهم من يصلحه الرجاء، وهم العصاة النادمون على ما فرّطوا في الآثام، فحاولوا التوبة إلى الله، بيد أنهم قنطوا من عفو الله وغفرانه، لفداحة جرائمهم، وكثرة سيئاتهم، فيعالج والحالة هذه قنوطهم بالرجاء بعظيم لطف الله، وسعة رحمته وغفرانه.

أما الذين يصلحهم الخوف: فهم المردة العصاة، المنغمسون في الآثام، والمغترون بالرجاء، فعلاجهم بالتخويف والزجر العنيف، بما يهددهم من العقاب الأليم، والعذاب المهين» [1].

وكان لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذين سكن خوف الله تعالى في نفوسهم وانعكس على جوارحهم، وزرع رجاؤه في قلوبهم، أروع الامثلة في هذا المجال، فروي عن أبي ذر رحمه الله أنّه بكى من خشية الله حتّى اشتكى بصره، فقيل له لو دعوت الله يشفي بصرك ؟!، فقال: إنّي عن ذلك مشغول، وما هو أكبر همّي. قالوا: وما شغلك عنه ؟! قال: العظيمتان: الجنة والنار [2].

من جانب آخر يُنمّي رواد هذه المدرسة الالهية شعور الرجاء في النفوس، فمن وصايا أمير المؤمنين لابنه الامام الحسن عليهما السلام: «أي بُنيَّ، لا تؤيسّ مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه ختمُ له بخير، وكم من مقبل على عمل مفسد من آخر عمره، صائر إلى النار، نعوذ بالله منها» [3].

(1) أخلاق أهل البيت، للسيد مهدي الصدر: 129 ـ دار الكتاب الاسلامي.

(2) روضة الواعظين: 285 في فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

(3) تحف العقول: 66 . مؤسسة الاعلمي ط 5.

الفصل الرابع

البناء الأَخلاقي

العقيدة تشكّل مرتكزاً متيناً لِلاخلَاق، لانهاَ تَخلق الواعز النفسي عند الانسانِ للتمسك بالقيم الاخلاقَية السامية، على العكس من العقائد الوضعية التي تساير شهوات الإِنسان، وتنمّي بذور الانانَية المغروسة في نفسه.

والاَخلاق تحظى بأهمية استثنائية في العقيدة الاِسلامية، قال الرسول الاكرَم صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثْت لُاتمم مُكارم الاَخلاق»[1] . وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً: «الخُلق الحسن نصف الدين، وقيل له: ما أفضل ما أعطى المرء المسلم ؟ قال: الخُلق الحسن»[2] .

الاِسلام يربط بين الدين الحق والاَخلاق، مثل هذه الرؤية تتوضح خطوطها في أن ّالدين يحث ُعلى الاخلَاق الحسنة ويقوم بتهذيب الطباع ويجعل ذلك تكليفاً في عنق الفرد يستتبع الثواب أو العقاب، وعليه فلم يقدّم الدين توجهاته الاخَلاقية المثالية بصورة مجردة عن المسؤولية، وإنّما جعل الاَخلاق نصف الدين، لانَ الدين اعتقاد وسلوك. والاخلَاق تمثل الجانب السلوكي للفرد.

(1) كنز العمال 11: 240 | 31969.

(2) روضة الواعظين، للفتال النيسابوري: 376 . منشورات الرضي . قم.

قال الاِمام الباقر عليه السلام: «إنَّ أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»[1] . جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حُسن الخلق. ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: حُسن الخلق. ثم أتاه عن يمينه فقال: ما الدين؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: حُسن الخُلق، ثم أتاه من ورائه فقال: ما الدين ؟ فالتفت إليه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أما تفقه الدين ؟ هو أن لا تغضب»[2] .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «عنوان صحيفة المؤمن حُسن خلُقه»[3] .

يقول العلاّمة الطباطبائي: «إنّ الاخَلاق لا تفي بإسعاد المجتمع ولاتسوق الانسِان إلى صلاح العمل إلا إذّا اعتمدت على التوحيد، وهو الاِيمان بأنّ للعالم . ومنه الانسِان . إلها واًحدا سرَمديا لاً يغرب عن علمه شيء، ولا يغلبُ فَي قدرته، خلق الاَشياء على أكمل نظام لا لحاجة منه إليها وسيعيدهم إليه فيحاسبهم فيجزي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته ثم يخلدون منعّمين أو معذّبين.

ومن المعلوم أنّ الاَخلاق إذا اعتمدت على هذه العقيدة لم يبق للانسِان هم إلا مرّاقبة رضاه تعالى في أعماله، وكانت التقوى

رادعاً داخلياً له عن ارتكاب الجرم، ولولا ارتضاع الاخَلاق من ثدي هذه العقيدة عقيدة التوحيد . لم يبق للانسِان غاية في أعماله الحيوية إلاّ التمتع بمتاع

(1) أُصول الكافي 2: 99 | 1 كتاب الايمان والكفر.

(2) المحجة البيضاء 5: 89.

(3) تحف العقول: 200.

الدنيا الفانية والتلذذ بلذائذ الحياة المادية» [1].

إنَّ العقائد الالحادية بإزالتها من النفوس البشرية شعور التعلق بالخالق الكامل، والمثل الاَعلى المطلق، والشعور برقابته وحسابه والمسؤولية اتجاهه، أزالت الركيزة الاَساسية للاَخلاق، ولم تستطع أن تعوض عنها بركيزة أُخرى في مثل قوتها.

الاَخلاق ضرورة اجتماعية، فهي بمثابة صمام أمان أمام نزعة الشر الكامنة في الانِسان، والتي تدفعه لمد خيوط الاذى لاَبناء جنسه، وعليه فالبناء الاجتماعي بدون منظومة الاَخلاق كالبناء على كثيب من الرمال، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كنّا لا نرجوا جنةً، ولا نخشى ناراً، ولا ثواباً ولا عقاباً، لَكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الاخلاَق، فإنها مّما تدلّ علىً سبيل النّجاح» [2].

أساليب العقيدة في بناء الإنسان أخلاقياً

لما كانت قضية الاَخلاق تحظى بأهمية استثنائية في توجهات العقيدة الاِسلامية، نجد أنهّا اتبعّت أساليب وطرق عدة متضافرة كبناء يتصل بعضه ببعض، تشكّل بمجموعها السور الوقائي الذي يحمي الانِسان من الانحدار والسقوط الاَخلاقي، ويمكن إجمال هذه الاَساليب، بالنقاط الآتية: .

أولاً: تحديد العقيدة للمعطيات الاَخروية للاَخلاق

فمن اتّصف بالاَخلاق الحسنة وعدته بالثواب الجزيل والدرجات

(1) الميزان في تفسير القرآن، العلاّمة الطباطبائي 11: 157 ـ مؤسسة الآعلمي ط2.

(2) مستدرك الوسائل 2: 283.

الرفيعة، ومن ساء خلقه وأطلق العنان لنفسه وعدته بالعقاب الاَليم.

قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ العبد ليبلغ بحسن خُلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنزل، وانهّ لضعيف العبادة» [1].

وقال أيضاً: «إنّ حسُن الخلقُ يبلغ درجة الصائمّ القائم» [2].

وقال موصياً: «يا بني عبدالمطلب، أفشوا السلام وصِلوا الارَحام، وأطعموا الطعام، وطيبوّا الكلام تدخلوا الجنة بسلام» [3].

وقال أيضاً: «إنّ الخلُق الحسن يميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد..» [4].

وفي هذا السياق، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلُق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح» [5].

ثم إنّ هناك تلازماً بين قبول الاعَمال عموماً والعبادية منها على وجه الخصوص وبين الاخلَاق، فقد روي أن رسّول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع أمرأة تسبُّ جارتها وهي صائمة، فدعا بطعام فقال لها: «كلي ! فقالت إنّي صائمة ! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كيف تكونين صائمة وقد سببت جارتك.. ؟!» [6].

---

(1) المحجة البيضاء 5: 93.

(2) إرشاد القلوب 1 . 2: 133 . منشورات الرضي . قم.

(3) إرشاد القلوب 1 . 2: 133.

(4) أُصول الكافي 2: 100 | 7 كتاب الإيمان والكفر.

(5) أُصول الكافي 2: 101 | 12 كتاب الايمان والكفر.

(6) الاخلاق، للسيد عبدالله شبر: 70 . منشورات مكتبة بصيرتي . قم.

ثانياً: بيان العقيدة للمعطيات الدنيوية للاَخلاق

فمن يتّصف بالاَخلاق الحسنة، يستطيع التكيفّ والمواءمة مع أبناء جنسه، ويعيش قرير العين، مطمئن النفس، هادىء البال، أما من ينفلت من عقال القيم والمبادىء الاَخلاقية، فسوف يتخبط في الظلام، ويعيش القلق والحيرة فيعذب نفسه ويكون ممقوتاً من قبل أبناء جنسه، ويدخل في متاهات لا تُحمد عقباها.

يقول الرسول الاَكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «حُسن الخلُق يثبتّ المودة» [1]. وقال وصيه الإمام علي عليه السلام: «.. وفي سعة الاَخلاق كنوز الارَزاق» [2]. وقال الإمام الصادق عليه السلام موصياً: «وإن شئت أن تكُرَمَ فلنَ،وإن شئت أن تهانُ فاخشن» [3]، وقال أيضاً عليه السلام: «البر وحسن الخلُق يعُمران الديارّ، ويزيدان في الاعمَار» [4].

وبالمقابل فإنّ للاَخلاق السيئة معطيات سلبية يجد الانسان آثارها في دار الدنيا، قال الامام الصادق عليه السلام: «من ساء خُلقه عذَّب نفسه» [5]، وقال عليه السلام لسفيان الثوري الذي طلب منه أن يوصيه: «لا مروءة لكذوب،ولاراحة لحسود،ولا إخاء لملول،ولا خُلّة لمختال،ولا سؤدد لسيء الخلُق» [6].

---

(1) تُحف العقول: 38.

(2) تحف العقول: 98.

(3) تحف العقول: 356.

(4) أُصول الكافي 2: 100 | 8 كتاب الايمان والكفر.

(5) أُصول الكافي 2: 321 | 4 كتاب الإيمان والكفر.

(6) في رحاب أئمة أهل البيت عليهم السلام، للسيد محسن الأَمين 4: 69 عن تحف العقول.

مما تقدم اتضح أنّ العقيدة ترغّب الانسان بالتحلي بالاخلاق الحميدة من خلال إبرازها للمعطيات الايجابية . الاخروَية والدنيوية . التي سيحصل عليها إذا سار في طريق التزكية، وبالمقابل تردعه عن الأَخلاق السيئة من خلال بيان الآثار السلبية . الأُخروية والدنيوية . المترتبة عليها.

ثالثاً: تقديم التوصيات والنصائح

تقدم العقيدة . من خلال مصادرها المعرفية . التوصيات القيمة في هذا الصدد، التي تزرع في الإنسان واعم الأَخلاق الحسنة، وتستأصل ما في نفسه من قيم وأخلاق فاسدة.

من كتاب النبوة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا أديب الله، وعلي أديبي، أمرني ربي بالسخاء والبر، ونهاني عن البخل والجفاء، ومامن شيء أبغض إلى الله عزَّ وجل من البخل وسوء الخلق، وإنه ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» [1].

وقال وصيه الإمام علي عليه السلام: «.. روضوا أنفسكم على الأَخلاق الحسنة، فإنّ العبد المسلم يبلغ بحسن خلقُه درجة الصائم القائم» [2].

وقال أيضاً موصياً: «.. عوّد نفسك السماح وتخيّر لها من كل خُلق أحسنه، فإن الخّير عادة» [3].

وقال عليه السلام: «.. وعليكم بمكارم الأَخلاق فإنّها رفعة، وإياكم والاخلاق

(1) مكارم الاخلاق، للطبرسي: 17.

(2) الخصال، للصدوق 2: 621 حديث الإربعمائة.

(3) بحار الانوار 77: 213 عن كشف المحجة لثمرة المهجة: 157 الفصل 154 . طبع النجف الأَشرف.

الدنية فإنّها تضع الشريف وتهدم المجد» [1].

من هذه الشواهد المنتخبة، نستطيع القول بأنّ العقيدة تقدّم نصائحها وتوصياتها القيمة مدُعمة بالمعطيات والدلائل المقنعة، لتشكّل جداراً من المنعة يحول دون جنوح الانسان المسلم إلى هاوية الاخلاق السيئة.

رابعاً: أُسلوب الاسوة الحسنة

وهو أحد الاَساليب التربوية للعقيدة، تربط الاَفراد المنتسبين إليها برموزها، لكونهم التجسيد المثالي أو الكامل لتوجهاتها، وهم المنارة التي تبعث أنوارها، وعليه فهي تحث الاَفراد على الاقتداء بهم بغية التأثر بأخلاقهم والتزود من علومهم.

قال تعالى: **(لقد كانَ لكُم في رسولِ الله أُسوَة حسَنة..)** [2] . لاَنّ سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي التجسيد الواقعي الكامل للرسالة، ولما كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . كما وصفه القرآن الكريم . يمثل قمةً في مكارم الاَخلاق: **(وإنَّكَ لعلى خلُقٍ عظيم)** [3] توجّب على المسلمين أن يدرسوا أخلاقه ويهتدوا بسنته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمد خُلقه من الله تعالى ومن كتابه الكريم، قال تعالى: **(خُذِ العفوَ وأمرَ بُالعرفُ وأعرض عن الجاهِلين)** [4] .

وروي أنّه لمّا نزلت هذه الآية الجامعة لمكارم الاخَلاق، سأل

---

(1) بحار الانوار 78: 53 عن الغرر والدرر، للآمدي.

(2) الاَحزاب 33: 21.

(3) القلم 68: 4.

(4) الاَعراف 7: 199.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل عليه السلام عن ذلك فقال: «لا أدري حتى أسأل العالم ثم أتاه فقال: يا محمد إنَّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك» [1] .

لقد دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى التحلّي بمكارم الاَخلاق كالتواضع والجود والامَانة والحياء والوفاء... وما إلى ذلك، كما نهى عن مساوىء الاَخلاق كالبخل والحرص والغدر والخيانة والغرور والكذب والحسد والغيبة. وهكذا جهد لتقويم كل خلق شائن، والشواهد كثيرة، لا يسع المجال لها، قال الإمام علي عليه السلام: «ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الاَرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه» [2] .

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو الرمز الاَكبر للعقيدة الاِسلامية، يحرص أشد الحرص على هداية الناس إلى سواء السبيل، لاَنَّ عملية البناء الحضاري للانسان تصبح عبثاً لا طائل تحته من دون عملية التوجيه والهداية. وأهل البيت عليهم السلام هم نجوم الهداية الاَبدية لهذه الاُمة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «..ألا إنّ مثل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كمثل نجوم السماء إذا خوى نجمٌ طلع نجمٌ..» [3] .

والهداية . بلا شك ولا شبهة تستلزم النجاة . هي الغاية المنشودة للاِنسان المسلم، ومن هنا يكمن المعنى العميق، والتشبيه البليغ، في حديث الرسول الاَكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق، وإنّما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب

(1) مجمع البيان، للطبرسي 3: 89 ـ منشورات مكتبة الحياة عام 1980 م.

(2) نهج البلاغة، صبحي الصالح: 228 | خطبة 160.

(3) شوح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد 7: 84.

حطة في بني إسوائيل من دخله غفر له» [1].

وصفوة القول، إن لاَهل البيت عليهم السلام دوراً كبوا فِي بناء الانسِان المسلم، وانقاذه من شتى أنواع الانحدار والضلال وليصل به إلى شاطىء النجاة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أُنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبَّعوا أثرهم، فلن يخُرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردىً..» [2]، وقال عليه السلام أيضاً: «نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي» [3].

ولقد سار الأئمة الاطَهار عليهم السلام على نهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته، فقاموا بدور حضاري مشهود في إشاعة وترسيخ الاَخلاق الفاضلة، والردع عن الاخلاق الذميمة، وكانوا يركزون على الجوهر بدلاً من المظهر، ويعتبرون تحلية الجوانح بالاخلاق الفاضلة أفضل وأولى من تحلية الجوارح بالملابس الفاخرة، فأصبح سلوكهم لنا أُسوة ومواقفهم قدوة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «خطب علي عليه السلام الناس وعليه إزار كرباس غليظ، مرقوع بصوف، فقيل له في ذلك، فقال: يخشع القلب، ويقتدي به المؤمن» [4].

والباحث يجد أن قضية الاخلاق قد احتلت مساحةً كبيرةً من آثار أهل البيت عليهم السلام كنهج البلاغة والصحيفة السجادية وغيرهما لما لهذه القضية الجوهرية من دور مهم في البناء التربوي للاِنسان المسلم، عن جوانب

(1) المراجعات، للسيد عبدالحسين شرف الدين: 23 المراجعة الثامنة، وفي هامش (37) اخرجه الطبراني في الآوسط عن أبي سعيد.

(2) شوح النهج، لابن أبي الحديد 7: 76.

(3) شوح النهج 18: 273.

(4) مكارم الاخلاق، للطبرسي: 113.

المدائني أنّه قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «ألا أُحدثك بمكارم الاخَلاق ؟ الصفح عن الناس، ومواساة الرجل أخاه في ماله، وذكر الله كثيراً» [1].

وفي الوقت الذي يردع فيه آل البيت عليهم السلام كل انحراف أخلاقي، فإنّهم يسترون على الناس معائبهم، ولا يستغلون ذلك ذريعة للتشهير بهم والنيل منهم، فمن كتاب أمير المؤمنين عليه السلام للاَشتر لمّا ولاه مصر: «وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإنّ في الناس عيوباً الوالي أحق من سترَها، فلا تكشفن عمَّا غاب عنك منها، فإنما [2]

عليك تطهير ما ظهر لك.. فاستر العورة ما استطعت..» .

وكانوا يتبعون أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، فعن الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال لرجل اغتاب رجلاً: «يا هذا كفّ عن الغيبة فإنّها أدام كلاب النارّ» [3].

وقال رجل للإمام علي بن الحسين عليهما السلام: إنّ فلانا ينسبك إلى أنكّ ضال مبتدع، فقال له الامام عليهما السلام: «ما رعيت حقّ مجالسة الرجل، حيثُ نقلت إلينا حديثه،ولا أديّت حقيّ حيث أبلغتني من أخي ما لست أعلمه !..واعلم أن منّ أكثر عيوب الناس شهد عليه الإكثار، أنّه إنمّا يطلبها بقدر مافيه» [4].

وكان من دعائه عليه السلام: «اللهمَّ إنّي أعُوذ بك من هيجان الحرص وسورَة الغضب وغلبة الحسد وضعف الصبر وقلة القناعة وشكاسة الخُلق..» [5].

---

(1) معاني الاخبار، للصدوق: 191.

(2) نهج البلاغة، ضبط صبحي الصالح: 429 كتاب 53.

(3) تحف العقول: 176 . مؤسسة الاعلمي ط 5.

(4) الاحتجاج، للطبرسي 1 . 2: 315 . مؤسسة الاعلمي ط 1401 هـ. (5) الصحيفة السجادية الجامعة: 69 . مؤسسة الامام المهدي (عج) . قم ط1.

وهذا الموقف التربوي العجيب:

ليس الاقتداء وقفاً على ميدان الخلق الفردي والاجتماعي، بل له أفُق واسع سعة آفاق الحياة، فكم سيتعلمّ الحكماء والساسة من دروس صانعي التاريخ ومهندسي الفكر ! لننظر في هذا الحدث . الذي قد يبدو صغيراً . في تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام، متطلّعين إلى ما يعكسه من صورة القائد القدوة والإمِام الاسُوة، والى ما يمكن ان نستلهم منه في جوانب حياتنا، فردية كانت، أو اجتماعية:

قام أعرابيٌّ يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول أنّ الله واحد ؟

قال: فحمل الناس عليه وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب ؟!

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «دعوه فإنّ الذي يريده الاَعرابي هو الذي نريده من القوم !»

ثم قال عليه السلام: «يا أعرابي إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام؛ فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّ وجل، ووجهان منها يثبتان فيه. فامّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به باب الاعداد، فهذا مالا يجوز، لانّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الاَعداد، أما ترى أنّه كفر من قال: إنهّ ثالث ثلاثة، وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوّع من الجنس، فهذا ما لا يجوز لاَنه تشبيه، وجلّ ربنّا وتعالى عن ذلك. وأما الوجهان الذي يثبتان فيه: فقول القائل: هو واحد ليس له في الاَشياء شبه كذلك ربنّا. وقول القائل: إنهّ عز وّجل أحدي المعنى يعني به أنه لا ينقسم

في وجود ولا عقل ولا وهم، كذلك ربّنا عزّ وجلّ»[1].

وكنظرة مقارنة، كم يكون البَون شاسعاً بين ما فعله الامِام علي عليه السلام مع الاعرَابي، مع ما فيه عليه السلام من تقسم القلب، كما وصفه أصحابه، نتيجة للفتنة التي عصفت بالمسلمين في الجمل، وبين ما فعله عمر بن الخطاب مع الاَصبغ بن عسل حين سأله عن متشابه القرآن، مع أنّ عمر كان يعيش مطمئناً في المدينة، نقل ابن حجر، أنهّ قدم المدينة على عهد عمر بن الخطاب رجل يدعى الاَصبغ بن عسل، سأله عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وضربه بدرّته حتى أدمى رأسه، وأسقط عطاءه، ونهى عن مجالسته. ثم. قرر نفيه إلى البصرة، وكتب إلى عامله عليها، أبو موسى الاَشعري: (أما بعد فإنّ الاصَبغ تكلّف ما كُفي وضيعّ ما وليُ، فإذا جاء كتابي فلا تبايعوه، وان مرض فلا تعودوه، وان مات فلا تشهده)[2].

أهل البيت عليهم السلام الأُسوة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

أهل البيت عليهم السلام هم أحد الثقلين الذين أوصى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أبناء أُمته بالتمسك بهما، والسير على خطاهما: «إنّي قد تركت فيكم الثقّلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله حبل ممّدود من السماء إلى الاَرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وانهّما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[3].

(1) كتاب الخصال، للشيخ الصدوق: 2 | باب الواحد طبع جماعة المدرسين ـ قم. ومعاني الاخبار: 5| باب معنى الواحد.

(2) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني 2: 198 . دار احياء التراث العربي ط1 عام 1328 هـ.

(3) بحار الانوار 23: 106. كنز العمال 1: 172 (وللحديث طرق مختلفة عن الفريقين).

الخلاصة

إنَّ العقيدة الاِسلامية هي القاعدة المركزية في التفكير الاِسلامي، التي تصوغ للانسِان المسلم نظرته التوحيدية للكون والحياة، وتنتج له مفاهيم صالحة تعكس وجهة نظر الإسلام في شتى المجالات، كما تنتج له عواطف وأحاسيس خيرة.

فالعقيدة تمثل عنصر القوة، وهي التي صنعت المعجزات وحققت الانتصارات الكبرى في صدر الإسلام.

ولاَجل النهوض بالانِسان المسلم لا بدَّ من تذكيره بالمعطيات الحضارية التي منحتها العقيدة لمن سبقه، وترسيخ قناعته بصوابيتها وصلاحيتها لجميع العصور.

ويمكننا إيجاز الدور الهام الذي قامت به العقيدة من أجل بناء الإنسان على جميع الاصعدة بما يلي:

1 . على الصعيد الفكري: اعتبرت الإنسان موجوداً مكرّماً، أما الخطيئة التي قد يقع فيها فهي أمر طارىء يمكن معالجته بالتوبة، وبذلك أشعرت الإنسان بقدرته على الارتقاء، ولم تؤيسه من رحمة الله وعفوه، ثم أنّ العقيدة حررت الانِسان من

الاستبداد السياسي للحكام الوضعيين الظالمين، كما حررته من عادة تأليه البشر، وأطلقت حريته، ولكن ضبطتها بقيود الشرع حتى لا تؤدي إلى الفوضى، كما ربطت الحرية

الإنسانية بالعبودية لله وحده، والخضوع الواعي والطوعي لسلطته.

كما حررت الإنسان من شهوات نفسه ومن عبادة مظاهر الطبيعة من حوله، ومن الأساطير والخرافات في الاعتقاد والسلوك.

ومن خلال عملية تحرير الفكر، قامت بعملية البناء، فأعطت مكانة كبيرة للعقل واعترفت بدوره وفتحت أمامه آفاقاً معرفية واسعة، كما فتحت أمامه نافذة الغيب، وأطلقته من أسر دائرة الحس الضيقة، ووجهت طاقته الخلاقة للتأمل والاعتبار في آيات الله الآفاقية والأنفسية، وجعلت من تفكره هذا عبادة هي من أفضل العبادات.

ولم تقتصر على ذلك بل وجهت طاقة العقل لاكتشاف السنن التاريخية الحاكمة على الأمم والشعوب، كما وجهت العقل للنظر في حكمة التشريع لترصين قناعة المسلم بشريعته وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

من جهة أخرى دفعت العقيدة الإنسان إلى كسب العلم والمعرفة، وربطت بين العلم والإيمان، فكل تفكيك بينهما سوف يؤدي إلى عواقب وخيمة، كما وجهت العقل للنظر المستقل والملاحظة الواعية واستنباط النتائج من مقدمات يقينية، ودعته إلى عدم التقليد في أصول الدين.

2 . على الصعيد الاجتماعي: قامت العقيدة بدور تغييري كبير، فبينما كان فكر الإنسان الجاهلي منصباً حول ذاته ومصالحها، غدا بتفاعله مع إكسير العقيدة يضحي بالغالي والنفيس في سبيل مبادىء دينه ومصالح مجتمعه.

وأزالت العقيدة التناقض القائم بين الدوافع الذاتية المتمثلة بحرص الإنسان على مصالحه وبين مصالح الجماعة من خلال إثارتها للشعور الاجتماعي للفرد نحو الآخرين.

وقد نمّت العقيدة هذا الشعور بأساليب عدّة منها: إيقاظ حسّ الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وتنمية روح التضحية والايثار لدى الفرد المسلم، ودفعه للانصباب في قالب الجماعة.

من جهة أخرى، قامت العقيدة بتغيير الروابط الاجتماعية بين الأفراد، من روابط تقوم على أساس العصبية للقرابة، أو على أساس اللون أو المال أو الجنس، إلى روابط أسمى تقوم على أسس معنوية هي التقوى والفضيلة والإخاء الإنساني.

ونقلت العقيدة الأفراد من حالة التناقض والصراع إلى حالة التعارف والتعاون، فشكلوا أمةً واحدة مرهوبة الجانب بعد أن كانوا قبائل وجماعات متفرقة ومتناحرة، لا تقيم لهم الأمم وزناً.

أضف إلى ذلك أن العقيدة الإسلامية قد قامت بتغيير العادات والتقاليد الجاهلية التي تسيء لكرامة الإنسان وتسبب له العنت والمشقة.

3 . على الصعيد النفسي: أسهمت العقيدة في خلق طمأنينة وأمان للاِنسان، مهما كانت عواصف الاَحداث من حوله.

وقد اتّبعت وسائل عديدة لتخفيف المصائب التي تواجه الاِنسان على حين غرة، ومن تلك الوسائل: بيان طبيعة الدنيا، وأنها دار محن واختبار، مليئة بتيارات المصائب التي تهب على الاِنسان كريح السموم، وعليه فمن المستحيل على الاِنسان أن يطلب الراحة والسكينة فيها. وعليه أن يضع نصب عينه النجاح في هذا الامتحان الالهي في الدنيا التي هي دار تكليف. ولقد خففت العقيدة من وطأة المصائب عبر التأكيد على أنّها تستتبع أجراً وثواباً، كما وجهت نظر الانسِان للمصيبة العظمى وهي المصيبة في الدين، الاَمر الذي يخفف من وقع المصائب الدنيوية الصغيرة.

من جانب آخر، حرّرت العقيدة النفوس من المخاوف التي تشلّ نشاط الانسِان وتكبت طاقته وتجعله نهبا لعوامل القلق والحيرة كما شجّعت العقيدة الاِنسان إلى معرفة نفسه، فبدون هذه المعرفة للنفس يصبح من الصعوبة بمكان السيطرة عليها وكبح جماحها، ثم بدون معرفة النفس لا يمكن معرفة الله تعالى حق معرفته.

ومن خلال البحث استنتجنا بأنّ الاَمراض النفسية الخطيرة كالعصبية والشح والاثَرَة إذا لم تعالج فإنها ستؤدي إلى عواقب اجتماعية وسياسية خطيرة، كتلك الفتنة التي عصفت بالمسلمين في السقيفة، التي بيّن الاِمام علي عليه السلام جذورها النفسية.

4 . على الصعيد الاخلاقي: قامت العقيدة بدور خلاّق في بناء منظومة الاخلاق للفرد المسلم، وفق أُسس دينية تستتبع ثواباً أو عقاباً، وليس مجرّد توصيات إرشادية لا تتضمن المسؤولية، على العكس من القوانين الوضعية، التي أزالت شعور رقابة الله والمسؤولية أمامه من نفس الفرد، وبذلك نسخت ركيزة الاَخلاق، فالاَخلاق بدون الايمان تفقد ضمانات الالتزام بها.

والملاحظ أنّ العقيدة اتبّعت أساليب عدةّ لدفع الافراَد للتحلي بالاخلاَق الحسنة وتجنب الاخلاقَ السيئة منها:

إبراز المعطيات الأُخروية وأيضاً الدنيوية المترتبة على الاخَلاق الحسنة أو السيئة.

كما اتّبعت أُسلوب «الاسُوة الحسنة» لترتبط الافراَد برموز العقيدة ومرشديها بغية التأثر بمحاسن أخلاقهم والتأسي بسيرتهم.